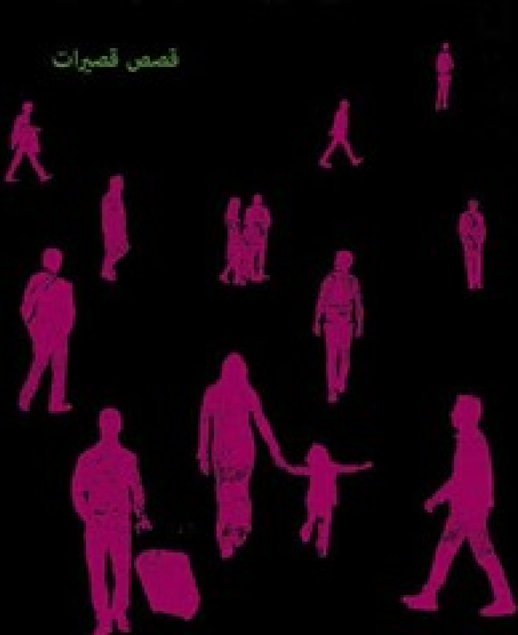
يوسف زيدان

حل وترحال

قصص قصيرات



دار الشروق


حِلٌّ وترحال
قصص قصيرات

حلٌ وترحال
قصص قصيرات

بقلم
د. يوسف زيدان

إن جميع ما تقدمه (سبارك) هو مصنفات عربية مائة في المائة لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس أو النقل من أي قصص أوربية أو أمريكية.

إشراف فني
د. سند راشد
د. تامر إبراهيم

تصميم الغلاف والإخراج الفني
أحمد عاطف مجاهد

مراجعة
محمد عبدالرحمن فرج

سبارك للنشر والتوزيع




موعـود

شىءٌ عجيب فعلاً. يصرُّون فى أيام طفولتنا الشمعية، القابلة لكل نقش، على حشو أدمغتنا الصغيرة بأفكار لا معنى لها ولا داع. أفكارٌ كثيرةٌ كانت تُقال لنا تصريحاً أو تلميحاً، وتُكرَّرُ على مسامعنا فى كل مناسبةٍ، فترسخُ: "يا ولد كُن رجلاً .. يا بنت لا تكونى امرأة.. لازم نحترم الكبير.. الكبار سرقوا البلد.. الطاعة مطلوبة.. الخنوع مذلة".

ومثل هذا كثيرٌ من تهاويل التراكيب، وتفانين التناقض والتضارب. لكن كلَّ ذلك لم يعد مهمَّاً عندى الآن، بقدر ما يهمُّنى ويؤلمنى تلك التعاسة الدائرية التى تدعونى لتعليم ابنتى الصغرى الصغيرة، ما تعلمته فى صغرى من هراءٍ، مثل قولهم: لابد من توقير الآباء لأنهم سبب وجودنا، ومنهم نأخذ أسماءنا ونحملها طيلة العمر.

هُم سببُ وجودنا! طيب، ماذا لو كبرنا فوجدنا فى وجودنا البلاء الملفوف بالبلاء، هل نظلّ نوقّر السبب؟ .. أبى سببُ بلائى، وأنا سببُ بلاء ابنتى. الاسمُ المثيُر لسخرية مَن يسمعه، هو أشنع ما جناه علىَّ أبى، وقد جنيته على ابنتى التى لم تشعر بعد بجنايتى الفادحة، لكنها سوف تشعر بها يوماً. لا محالة. لعلّ أبى حين أسمانى كان يظن نفسه لطيفاً أو خفيف الظلِّ، وربما أوهمه بذلك أصحابه وتلك السجائر المنتفخة التى كان يدخّنها معهم، محشوَّةً بالحشيش، فتلفُّ رأسه بالضباب وعينيه بالاحمرار.. عارٌ عليه، وعلىَّ احترامه.

ليلة ميلادى العسير، سنة واحد وسبعين وتسعمائة وألف. غنَّى العندليبُ البشرى الأغنية العجيبة "موعود" وكان أبى ساعتها مبسوطاً فى دكان "عمّ جُمعة الخياط" المجاور لمنزلنا المتآكلة جدرانه، وأظنُّه

كان مُنتشياً بالأغنية وبالدخان الأزرق المتحلِّق فوق رؤوس الأصحاب الضاحكين والمتضاحكين. ليلتها حسبما أخبرتنى أمى من بعد، جاءه بالبُشرى الولدُ النحيل "يُسرى" ابن "عبده المكوجى" وهو الذى صار بعد سنوات يكوى مكان أبيه، الذى كان يكوى مكان أبيه ويكتوى بمصيره. جدتى أرسلت "يُسرى" ليُفرح أبى ويبهجه بخبر مولدى، لأنه كان يرتعد ككل آبائنا من احتمال أن تلد امرأته الحبلى البائسة بنتاً، تكون مثل أمها أو أكثر بؤساً.. أبى الغارق فى سحابات الدُّخان ابتهج حين أتاه الخبر، وصاح وسط الحاضرين: خلاص، نسميه موعود.

***

فى الصباح التالى تحاملت أمى النفساء على ضعفها، وجرَّبتْ التحرُّر من خوفها بأن طلبت من أبى، فور نهوضه من نومه الزاعق بالشخير، أن يوافق على تسميتى (علىّ) لأنه أبو سيدنا الحسين، فزعق فى وجهها وكفَّ كلامها بقوله الناهى: "أنا قلت موعود.. موعود يعنى موعود". وهكذا صرتُ من يومها موعوداً.

أمر الله. حكتْ لى أمى مراراً قصة تسميتى، من دون أن تضيف أيَّة تفاصيل فى أيَّة مرة، فأمى لا تُضيف وليس لديها إلا الحكايات التى بلا ضفاف، أو إضافات. ولديها أيضاً الأكلاتُ التى تسد بها أفواهنا كى تمنع العويل، والارتجافاتُ من أبى إذا زمجر أو نظر شذراً إليها. هى حنونٌ دوماً معى، ومع أخوتى الكثيرين المتقاربين شكلاً كفصوص الثوم. وأبى كان فى بعض الأحيان حانٍ.

فى طفولتى قلتُ لأمى إن تلاميذ المدرسة يسخرون من اسمى فأبكى، فبكتْ. قلتُ ذلك لأبى فى المساء، فاستاء ونهرنى وهمهمَ بما معناه أن ذرية الزوانى هؤلاء، لن يفهموا سرَّ اسمى ولن يعرفوا أبداً معناه، إلا بعد فوات الأوان ولن يدركوا السرَّ.

فى بدء انتظامى بالصف الأول الإعدادى، تلطّفتْ مدرِّسةُ الموسيقى السمراء التى لم تدرِّس لنا أى شىء طيلة السنوات الثلاث، وسألتنى عن سبب جلوسى وحيداً وعزوفى عن اللعب مع بقية الصبيان. خجلاناً همستُ لها بأنهم يسخرون من اسمى، فسألتنى عنه ولما أخبرتها لم تستطع منع الضحكة التى انفلتت منها. ومن يومها ما شكوت قط من اسمى لأى شخص، فالشكوى وإن كان فيها الارتياح العابر، فإن فيها أيضاً مذلَّة.

جرَّبتُ حين راهقتُ البلوغ أن أنطق اسمى باعتزازٍ مصطنع، لعل السامع يرتدع عما اعتدته من الناس، ولكن لا فائدة. معظمهم يسمع الاسم فيضحك، وبعضهم يردُّ علىَّ هازئاً بعباراتٍ عامية تافهةٍ من مثل: "موعود بإيه لا مؤاخذة.. يبقى أكيد أبوك اسمه مسعود.. الموعود موعود، ولو علقوا برقبته عمود" وبعضهم كان يتغنَّى من فوره ساخراً: موعود ودايما بالجراح موعود يا قلبى، هه هه.

فى يوم صائفٍ بمنتصف العام الخامسّ والثمانين وتسعمائةٍ وألف، تحسَّست فى الصباح الشعر الأصفر الخفيف الذى بدأ ظهورُه على جانبى وجهى، وفى المساء سألتُ أبى عن هذا السرِّ الرهيب المختفى خلف اسمى، وعن سبب اختيارى من دون إخوتى لأكون أغنيةً وسخرية..

هزَّ سيجارته المتورِّمة وهو يقول: شوف يا بنى، اسمك ده أحلى اسم فى الدنيا. لما بُكره تكبر وتفهم الأغنية هاتعرف كل شىء. قول لأمك تحضَّر لنا العشا.

هل كان أبى يدرك ليلتها، أنه بعد شهرين من كلامه هذا، سيظل يسعل لأسبوعين وبعدهما يموت ويتركنى موصوماً بالاسم الذى ليس فيه سرٌّ، ولا له تفسير. بعد موته، وقبله، بقيتُ أسمع الأغنية مثلما يسمعها بقية الناس، فلا أدرك من وراء كلماتها شيئاً.

بعد وفاته بأربعة أعوام أفصحتُ عن همِّى لعمى "خليل" الموظف بشبكة الصرف الصحى، فأجابنى بأنى جئتُ إلى الحياة فى زمن مصرىٍّ صعب، وكان كل الناس فى بلادنا مهزومين ومحتاجين وعداً بالانتصار. قال ذلك كأنه رجلٌ حكيمٌ أتى من الأزمنة الغابرة، ثم خلع نظارته المغبَّرة ليمسحها بمنديلٍ كان سابقاً أبيض، وأضاف: ولما كان عندك سنتين انتصرنا فى الحرب، الحمد لله، ويمكن اسمك هوَّ اللى صبَّرنا قبلها على الغُلب.

ما شأنى أنا بالهزائم والانتصارات الممزوجة بهزائم؟ أما كان ممكناً التضحية بغيرى أو تسميتى باسم قريب المعنى، مثل "عيد" فيمكنهم تدليلى فى الصغر بموعود، ثُم يسقط عنى اسمُ التدليل بالتقادم أو بالنصر، فأتحرَّر مما هو مكتوبٌ علىَّ أبد الدهر؟ وأما كان ممكناً أن أولد بعد موعدى بعامين، فيسمِّينى أبى "منصور" وهو اسمٌ قوىٌّ ومشهورٌ، ولا يهزأ به أحد.. ما كان كان، ولا فائدة من هذا الكلام الآن.

أحد الأذكياء المتكسرين الذين درَّسوا لى فى السنة الأولى من أيامى الجامعية المريعة، كان مختلفاً عن عموم الناس، ولم يضحك حين سمعنى أنطق اسمى أمامه لأول مرة، فأدهشنى. استرحتُ إليه، فأطلتُ الكلام وأخبرته بسبب تسميتى التى فقدت معناها بعد عامين من مولدى، وبأن اسمى أحال حياتى جحيماً لأنه لم يعد له معنى. فقال إن الأسماء لا يُشترط أن تكون ذات معنى خاص أو دلالة، ثم ابتسم برفق وهو يقول إن اسم بلادنا نفسه "مصر" ليس له أصلاً دلالة ولا معنى.

تخرَّجت فى كلية العلوم سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وألف، فوجدت بحمد الله فرصة عمل بدكان البقالة القريب من البيت، وبقيتُ بقَّالاً لخمس سنوات انتهت بوصول خطاب "التعيين" من مكتب العمل، فصرتُ من يومها موظفاً مثل عمى بهيئة الصرف الصحى، وصحَّ لى أن أفكر فى الزواج بجدية، ما دمتُ عاجزاً عن السفر للعمل ببلاد الخليج.

زوجتى، أو بالأحرى كومةُ اللحم متراميةُ الأطراف، المستلقيةُ الآن فى غرفة النوم المجاورة، تغطُّ تحت غطاء سريرى، وتُعلن عن عمق نومها بصوتٍ كالصفير الممزوج بخوار الأبقار. كانت قبل زواجنا رشيقةً كالغزال حين يخطو متخايلاً، فيثير الخيال ويملأُ النفس بهجةً ورغبةً فى اللحم المؤنَّث، الناعم.. الشهى.. الرَّخِص. كانت فى ميعة صباها تأتى إلى بيتنا أحياناً، لزيارة خالتها القعيدة الساكنة فى الشقة المقابلة لنا، كان اسمها "الحاجَّة زينب" مع أنها لم تخرج يوماً من مصر، ولم تحجّ إلى أى مكانٍ مقدّسٍ أو مُتوهَّم القداسة، أو حتى لزيارة مُتنَزَّه عام، وبعد عامٍ من زواجنا ماتت. رَحمها الله. أمى رحمها الله، رأتِ

آنذاك أن الفتاةَ الغِزلانيةَ مناسبةٌ لى، فارتضيتُ ما رأته أمى وذهبتُ معها متلمّعاً لخطبة الغزال، قبل أن يشرد إلى بيت زوجية آخر. ليته شرد.

جرت ترتيباتُ الزواج بيسرٍ وسهولةٍ فلم يستغرق إتمام الأمر إلا ثلاثةَ أعوامٍ وستة أشهر، صرنا بعدها نسكن هذه الشقة الحقيرة التى كان أبى يعيش فيها، ويدخِّن الحشيش. من أين كان يأتى بالمال ليشتريه. المهم أننى نسيتُ سُخف اسمى فى الأيام الأولى للزواج، أذهلنى عن ذلك دهشتى الشبقية من تفاصيل جسم الغزالة كلما استعلنتْ جهاراً، بأن تجرَّدت أو تخفَّفت من ملابسها مساءً أو نهاراً. وما كنتُ أدرى آنذاك أننى أبتلع الطُّعم المطلوب ابتلاعه، لكى ننجب ابنتنا الوحيدة النائمة الآن إلى جوار أمها، كغزالٍ أغَنّ رشيق، وما كان يخطر ببالى أيام عُرسى أننى سأفضل النوم على هذه "الكنبة" المنزوية فى ركن الصالة، كما كنتُ أفعل قبل وقوعى فخ زواجى الذى جاء بخلاف ما حلمت به وتوهمته. إذ امتدت بهجته شهرين أو ثلاثة وربما أكثر بقليل، مع أن أمى كانت تقديراتها أقل من ذلك. وكانت بعد "الصباحيّة" بيومين، تمهِّدنى للصدمة بأن تقول لى دوماً من غير مناسبة: وماله، افرح شوية يا بنى قبل ما تفوق من العسل، وبكرة تعرف إن حلاوة الفصّ شهر ونُصّ.

عرفتُ.. وقررتُ النوم فى الصالة منفرداً، فى الوقت الذى كان الناس يحتفلون بالألفية الجديدة. ومنذ ذاك الحين وأحوالى منتظمةٌ، وتسير على هونٍ محتمل، فالناسُ لم تعد تسمع الأغنية فما عاد اسمى

يدعوهم إلى استهزاء، أو أن الشيب الذى خطَّ فى رأسى صار يمنعهم من الاستخفاف بى، أو لأن الغريب لم يعد مستغرباً.

***

فى تلك السنوات الأخيرة التى بلا ملامح، قررتُ أن أتباعد عن المنغصات وأدعو نفسى للمصالحة. وفى ختام ليلةٍ قضيتها متقلّقاً، حتى وصلنى صوتُ الأذان من المساجد العشرة المحيطة بالبيت، فاجأنى خاطرٌ عجيبٌ خلاصته أننى لن أصفو مع ذاتى، إلا بإعادة النظر فى البدايات التى بها تنحسمُ المساراتُ وتتحدّد النهاياتُ. فأعدتُ الاستماع إلى كلمات الأغنية كأنها لا تخصُّنى، كى أفهم سرّها الذى طالما زعمه أبى. واجتهدتُ بل جاهدتُ، حتى انكشفتْ لى شيئاً فشيئاً الشفراتُ الخطيرةُ المبثوثة بمكرٍ بالغ، بين كلمات الأغنية.

وفى لحظة إشراقٍ نادرة، وجدتنى فيها فجراً. همتُ فى اشتجار الإشارات واشتباك المعانى حتى فهمتُ ما أدركه أبى فور استماعه الأغنية أولَ مرة، وتعجَّبتُ منه حتى أننى قلت بصوتٍ عالٍ لم يسمعه أحدٌ، ما معناه: كيف استطاع ذلك !

وجدتُ فى الأغنية إشارات لا حصر لها، وأدركتُ فجأة أن فيها سرَّ ما كان وما سيكون وما لم يكن، ولو كان ما لم يكن، ولن يكون، كيف كان افتراضاً سيكون. ولكن. ولكى تشوّش الكلماتُ على ضعاف العقول، وتحجب دقائق الحقائق عن صغار النفوس وأمثالهم من غير القادرين على احتمال النبوءات المُربكات، بدأت الأغنية بكلماتٍ ساذجات، يشتكى

فيها المُغنّى من حاله. فهو الموعود، ولا سبيل لهروبه من الوعيد المصيرى "العذاب" و"الجراح" .. وهكذا ظهر الكلامُ كأنه يُخبر عن حال عاشقٍ محروم، لكنه فى حقيقة الحال يُخبر عن مآل كل السامعين للأغنية والغافلين عن أسرارها، فكلُّ سامعٍ موعود بالجراح وبالعذاب ولا فكاك من ذلك. فلا يتعلَّق المعنى العميقُ بالعشق والحرمان، وإنما بالمصير العام الذى تحتّمَ علينا بسبب ذاك الشخص الذى جاء فى غمرة اليأس، وفى وسط الحيرة الغامرة والقلق الذى: لا يهدأ ولا يرتاح فى يوم، يا قلبى. وهذا الشخص الغامض جاء فجأةً حسبما تقول الكلمات بالعامية "وميّل، وحَدَف منديله" لكى يُغرى اليائسين بالأمل المنديلى الخدّاع، بعدما دعا الجميع لانتظار وصوله بأن كتب على طرف المنديل: أَجيلُه.

ولكن، مَنْ هذا الشخص الغامض الذى سوف يجىء، ويجيىء لمن، ولماذا المجىء أصلاً؟ .. لم تُفصح الأغنية عن ذلك، لكنها أشارت من بعيد إلى أن هذا المجيئ سوف يُحيى الأمانى المستحيلة، الخادعات. ولذلك عاد منشدُ الأغنية فكرّر أنه مع بقية السامعين، والذين سوف يسمعون: موعود دايما بالعذاب موعود.

الأمر حتمىٌّ، إذن، وسوف يقع لا محالة. وكما تقول الأغنيةُ، فقد ابتدأ "المشوار" ممزوجاً بالخوف من "آخر المشوار" بالآمال التى تبعثها فى أرواح اليائسين العيونُ الخادعاتُ، التى تُقدّم الحلول الوهمية لكل المشكلات الفعلية.. ثم قالت الأغنيةُ بوضوح تام، إن الشخصية الغامضة المخادعة التى ظهرت فى ابتداء المشوارِ، أجابت ابتداءً على كل الأمور المحيرة. أجابتْ من دون أن تتكلم بشىءٍ، كيلا تلتزم لاحقاً

بكلامها، أو بأىّ شىء:

كُل حاجة فكّرت فيها، فى لحظة واحدة ردّت عليها.

بنظرة حلوة من عينيها

وعلى هذا النحو اللعوب المراوغ، وبالنظرات فقط، أشاعت الشخصية المشهورة الغامضة فى نفوس الجميع أحلاماً مستحيلة التحقُّق. ثم أفصحت كلمات الأغنية فجأةً عن أن الأمر كله أوهامٌ من أوهام، فانتهت أواخر الكلماتُ إلى تبيان الحقيقة المقبلة لتعمِّم على الجميع العذاب والجراح، وأفصحت عنها تصريحاً لا تلميحاً وبالعامية العمومية التى تبسّطت حتى دقَّت عن أفهام جميع الناس، إلا أبى. مع أن هذا الوضوح باهرٌ ولا يحتمل الشك إذ يخبرنى بأننى مثل الجميع، موعود . . تقول لنا الأغنية فى نهايتها، عن نهايتنا :

"شوف بقينا فين يا قلبى، وهىَّ راحت فين.

شوف خدتنا لفين يا قلبى، وشوف سابتنا فين.

فى سكة زمان راجعين، فى سكة زمان.

فى نفس المكان ضايعين، فى نفس المكان.

لا جراحنا بتهدا يا قلبى، ولا ننسى اللى كان يا قلبى، شوف" .

ومن غرائب المصادفات وعجائب التوافقات، أن كلمة "شوف" تعنى انظرْ، وهى تعنى: تمنَّ، ترقَّب. كأن المغنى يقول لسامعه: انظرْ إلى ما كنت تتمناه وتترقبه، بعد الوعود الكثيرة التى خايلوك بها وجعلوك تعيش الانتصار وأنت مهزوم، بأن أطلقوا الأسماء الدالة على النصر الموعود: بحيرة ناصر، مدينة نصر، الناصرية.. لكن الجميع سوف يصحو من

حلمه على فجيعة الهزيمة عام ١٩٦٧ فيعلم أن الوعد كان وعيداً.. تقول الأغنية:

بتصحّى الطريق خطاوينا، وأنين السنين.

والسما بتبكى علينا، والناى الحزين.

حتى نجوم ليالينا والقمر، غايبين.

وتانى، تانى، تانى،

راجعين أنا وانت تانى. للنار والعذاب من تانى.

وتانى تانى تانى، راجعين للحيرة تانى.

هايمين، بنجرى ورا الأمانى.

ويغيب القمر ونعيش السهر وآهات الألم

فى ليالى الندم.

وأمانة يا دنيا أمانة، تداوينا من جرح هوانا

وتخلّى الحب بعيد عنا.

ولا نستناه، ولا يستنّى.

فهل هناك وضوحٌ أجلى من هذا، وأدلُّ على الحال العام؟ فلماذا غاب مراد الأغنية عنى، وعن الناس جميعهم، طيلة هذه السنوات. وكيف أدركة أبى، فخلّد إدراكه بالاسم الذى اختاره لى، أو بالأحرى جعلنى به شاهداً على إدراكه للمعانى البعيدة والواقعة الشديدة: كلنا موعودون بالعذاب.. موعودون يا قلبى.

***

فى مطلع العام الحادى عشر بعد الألفين، عشتُ بعدما بلغت الأربعين من عمرى، قصة حبٍّ عميقة من طرفٍ واحدٍ، امتدت شهرين. كان الناس قد خرجوا أفواجاً من بيوتهم ومن صمتهم، إلى الشوارع والميادين ليصخبوا زاعقين بلسان الشحّاذين والمحبوسين، مطالبين بالعيش الذى هو الخبز الحاف، وبالحرية التى لم يحدِّد أحدٌ منّا معناها، وبشىءٍ ثالثٍ لا دلالة له فى اللغة التى نستعملها منذ ألف سنة، اسمه العدالة الاجتماعية.. وأخذ الموعودون الجدد يتعالون بالزعيق فى الأنحاء، معلنين إيمانهم بالوعد "تانى، تانى، تانى" وراحوا يتصايحون: عيش، حرية، عدالة اجتماعية.

أيامها ذهبتُ مع الذاهبين لكى أستطلع الأحوال، لأننى لم يكن لدىَّ شيئاً آخر لأفعله، فتنسَّمتُ فجأةً هواءً لم أشعر بمثل نقائه من قبل، ولا من بعد. وأعجبنى كلُّ الكلام الذى كان يدور بين الناس، لا سيما هذه العبارات الرنانة: نسائم الحرية تهبُّ على البلاد بعد ثلاثين عاماً من الظلم.. نسائم الحرية تهبُّ على البلاد بعد ستين عاماً من القهر.. نسائم الحرية تهبَّ على البلاد بعد سبعة آلاف سنة من حوب الحكام.. نسائم الحرية شرفٌ ولن تهبَّ علينا حتى يُراق على جوانبنا الدمُ.

وأيامها، أيقنتُ حقاً وصدقاً إننى كنتُ الموعود سابقاً بالعذاب، وصرتُ اليوم الموعود بنسائم الحرية.. واستمتعتُ بهذا اليقين المؤقت، إذ كان الوقت آنذاك مبكراً على اكتشاف أن الحرية ليس لها نسائم ولا أعاصير، وأنها لا تصير إلا حين يصير الإنسان إنساناً.

وأيامها، تحدَّثت فى الميدان إلىً فتاةٌ تخطَّت العشرين من عمرها

بعام واحد، أو عامين، لكنها مكتملة الأنوثة وفوَّاحة بها وساحرة. بلا سابقٍ معرفة أخبرتنى بأنها تخرَّجت توًّا فى كلية العلوم، ولن تجد عملاً إلا إذا نجحت هذه الثورة المجيدة، فوافقتُها. وقالت إن الأجيال السابقة قصَّرت فى حقِّ الجيل الحالى، لكن جيلها الثائر لن يقصِّر أبداً فى حَقِّ الأجيال القادمة، فأكبرتُها. وأكّدت أنها لن تخاف بعد اليوم وستكون دوماً فخورة بوطنها، وبأهلها، وبالجينات الوراثية الآتية إليها من زمن المجد القديم.. فخشيتُ عليها، وعلينا.

رأيتها فى الميدان سبع مرات، وفى منامى سبعين مرة، وفى خيالى وأحلام صحوى ما لا حصر له من المرات. وما رأيتها فى كل هذه المرات إلا كشمسٍ تشرق على ليل الحزانى، أو كزهرةٍ يانعةٍ قوية اللون تنبتُ فى أرضى الجرداء، أو كمحبوبةٍ محتملةٍ قد يسمح بمثلها الزمان.

لكن الرجاء انقطع من دابره، وإن شئت قلت: انتزع بقسوةٍ من جذوره، يومَ رأيتُ الفتاة اليانعة مع الولد اليافع الأنيق، اللائق بها، القريب عمره من سنها.. يومها، كان آخر ما سمعته منها، وهى التى كانت من قبلُ تنادينى باسمى برقةٍ حانيةٍ ومن دون إضافات:

- يا عم موعود، أحب أعرَّفك بأحمد، صاحبى، يعنى فى الحقيقة حبيبى. كان فى أوروبا وناوى يستقر هناك، ولما قامت الثورة قرر يرجع لبلده، ويقعد معانا على طول. ومن ساعة ما تقابلنا، واحنا مع بعض.

- ربنا يسعدكم يا بنتى.

ربنا يسعد كل موعود.. أحمد عاد ليقعد فهنيئاً له حظُّه، وليحمد ربه على ما آتاه من نعمةٍ ومن اسمٍ محايد، ومن محبوبةٍ تفرح برجوعه إلى

الحضن العميم، وتتوهّم أنهما سوف ينعمان بالعيش والحرية والعدالة المجانية، وأنهما لن يفترقا. قلتُ ذلك فى نفسى بينما الفتاة الساحرة اليانعة تتلفَّت حولها فى الأنحاء، فرحةً، حتى أخذتنى منى ومنها حركةُ المتدافعين فى الميدان العامر.

بعد انتهاء ذاك اليوم، تأكَّدتُ من أنه سيكون هذا آخر عهدى بالميدان. ما عاد هناك داعٍ لذهابى، فالجميع فى غنىً عنى لأنهم عنى مشغولون، وموعودون. ولم يعجبنى أن بعض الثوار، صاروا ينامون فوق النجيل مع سفلة الناس لتبقى ثورتهم صاحية، فتصح.

فى بيتى قلتُ فى نفسى وأنا مستريحٌ فوق الكنبة، وغير مستريح، وقد شددت فوقى الملاءة: ما عاد لى شأن بأىّ شىء، لأننى ما عدتُ موعوداً ولن أتعلَّق بأى وعود. والخروجُ للميدان صار مؤخراً خطراً، وقد فعلتُ الواجب علىَّ تجاه بلادى، بذهابى إلى الميدان يومياً خلال الأشهر الماضية.. ونمتُ بعدما استرحتُ لخاطرٍ ورد على رأسى فجأةً، كانت صورته هذه العبارة: لن يصحَّ إلا الصحيح، فى يوم القيامة.

***

فى صيف العام الثانى عشر بعد الألفين، للميلاد، طلبتْ منى ابنتى الوحيدة أن أصحبها لزيارة الميدان لترى الثائرين عياناً، عن قرب. قلتُ لها إنها بعدُ صغيرة، فاحتجَّتْ بأنها كبرتْ وصارتْ فى الثانية عشرة من عمرها. قلتُ إن أمها سوف تقلق عليها، فردَّتْ والدتها صارت متحمّسةً للثورة، وتنوى الذهاب إلى الميدان فى رفقة الأَخَوات اللواتى يحضرن

معها دروس الوعظ بالمسجد الصغير الذى بآخر الشارع. مترامية الأطراف صارتْ ثورية. لم أجد سبيلاً لصرف ابنتى عن فكرة الخروج للميدان فوعدتها بأن أصحبها غداً إلى العمل، حيث لا عمل، ثم نذهب ظهراً إلى الميدان بعدما نتناول وجبة "كشرى" لذيذة، فابتهجتْ مثلما يفعل الأطفالُ لأهون الأسباب. ولذلك هم أحباب الله.

فى طرف الميدان، انتبهتُ إلى أن انقطاعى عن المشاركة فى الثورة المباركة دام ستّةَ أشهر، مريرة، ووجدت المكان قد صار مختلفاً. فقد اختفت منه وجوهٌ كانت فرحةً ومفرحة، وامتلأت الأنحاء بالحريم المستترات بالاسوداد وبرجالهم من أصحاب اللحى والبطون الكبار.. ما للهواء هنا قد صار ثقيلاً؟ ربما هو أثر الحرّ فى الصيف الذى التهب واحتدم، وبات مقدمةً لمزيد من الالتهاب.

كانت ابنتى فرحةً مثل بقية الحالمين، ومبتهجةً بالأجواء التى ستأخذنا بعد عام واحد لأرض الاكتئاب. وكنتُ أسيرُ ممسكاً يدها وفاقداً الاتجاه، وعازفاً عن الحديث مع أى شخص. لكننى اضطررت للردّ على الأخ لابس الجلباب، منتفخ الرقبة والبطن، الذى ألقى علىَّ السلام وحين رددته سألنى من فوره عن اسمى، ولما أخبرته قال: ما شاء الله، ما شاء الله، كلنا موعودين بإذن الله.

امتلأ وجهه السمين بابتسامة لم أعرف لها سبباً، ثم سألنى إن كنتُ صائماً فنفيتُ، وسألنى إن كنتُ أعمل بالتجارة فمللتُ سُخفه، وسألنى عن اسم ابنتى فقلتُ وأنا أتهيأ لفِراقه:

اسمها بسملة.

عُرس العجوز

مثلما يحدث دوماً كل صباح، اقتحم شعاعُ الشمس الجزء الممزق من ستارة الشباك، فأيقظ السيدة الوحيدة التى كانت قبل قليل نائمةً كمومياءَ طازجةٍ فى وَهْدة سريرها، المقعَّر حشوه القُطنى من طول نومها بلا رفقة. طقوسها الغريبة تُنهكها فى منتصف الليلات، فتستلقى مستسلمةً للغرق فى قاع بحار النوم، وقد تطفو بها الأحلامُ فتصير أحياناً كقطعة خشبٍ حائرةٍ، تلعب بها أمواجٌ تتوالى كالجبال الجارية جرىَ السحاب الخريفى.

كانت فى السابق تترك حيزاً من ستائرها المعتمة مكشوفاً، فيكشف عن زجاج شباكها ويسمح لضوء البكور بالتسلُّل إلى كهف عتمتها الليلة، التامة، فيوقظها من السُّبات العميق. فلما تهرَّأ القماشُ وشفَّ أسدلت كل ستائرها، وأهملت الإزاحة، لحصول المطلوب من دون عناء. ما عاد شىءٌ يشغلها عن طقوسها ورقدتها الهانئة، فقد خفَّت عنها تكاليفُ الحياة منذ التحقتْ أختُها الكبرى بدار المسِّنين والمسنَّات، فانفردتْ بالبيت، وقبل ذاك مات زوجها المتصابى فجأةً، فشُفيتْ من آلام القولنج وانقطعت عنها الكوابيسُ.

أقاربُها الأباعدُ كَفّوا عن التردُّد عليها، لأن طول الأَجَل يستجلبُ الملَل، فانفضُّوا من حولها رويداً واكتفوا بالمتابعة من بعيد انتظاراً لموتها المريح، المتيح لهم الاستيلاء على موروثها المرتقب: شقَّتها، وملكية البيت ذى الطابقين، وقطعة الأرض الخلفية، وما قد يجدوه مخبوءاً فى الغرف من أموالٍ لم يعد لها صاحب. والصويحبات اللواتى كن يتجمَّعن حولها للنميمة فى المنتدى المسمى بالنادى الاجتماعى، اليابسة أشجارُهُ، أثرن

فى نفسها السأم يوماً بعد يوم بسبب تكرارهنَّ السؤال: لماذا لا تتزوجين مجدداً ما دمتِ مقتدرة؟ .. ثم تأكيدهنَّ المجاملة اللازمة للسؤال: جميلةٌ أنت وألف رجلٍ فقيرٍ يتمناك! .. ثم تصيّدهنَّ لأخبار الخيانات الزوجية الجارية فى النادى بلا انقطاع، بالفعل أو بالنية، وسخريتهنَّ من مظاهر الثراء البادى على الذين كانوا عجافاً وشبع آباؤهم من بعد جوع، وانبهارهنَّ الساذج من صيحات الأزياء التى اندثرت ثم عادت مع تعديلات طفيفة. ملل. انقطعتْ عنهن وقنعت بالوحدة فى قولٍ، وفى قولٍ آخر، إنها أحبَّتْ الوحدة بعدما أهدت إليها العجوزُ العراقية خصلة الشَّعْر الصغيرة التى غيَّرت حياتها ودخلت بها فى أفقٍ جديدٍ، ما كان يخطر لها على بال.

العراقيةُ العجوز كانت تستأجر منها شقة الطابق الأول، وبالأحرى كانت تعتصم بها فلا تخرج من بابها إلا نادراً. ومع مرور الوقت بسقت بينهما بذورُ الثقة، فكانتا تتسامران وتتكلمان كأختين. وحين اطمأنتْ لها الجارةُ العراقية، أخبرتها بأسرارٍ كثيرةٍ منها أنها كانت أول امرأةٍ عربية تُجرى جراحات التجميل، وذلك هو سبب قبحها الحاد الحالى. ولما اندلعت كالمعتاد حربٌ فى العراق، أعلمتها بأنها تحنُّ للبدايات وتنوى الرجوع إلى بلادها الأولى، ولسوف تذهب إلى بغداد بعد شهرين أملاً فى أن تهلك هناك مع الهالكين. ليلة ذهابها إلى موطنها، بعد انقضاء الشهرين بالتمام، دعتها لجلسة الوداع وأعددت لها مُتكئاً، وألحتْ عليها حتى وافقت واحتستْ معها الشراب المعتَّق. وقبل افتراقهما قامت ابنةُ الرافدين الغَنِجة إلى حقائبها المصفوفة قرب الباب، ودسَّت ذراعها

النحيل فى الحقيبة الأقدم فأخرجتْ منها علبةً خشبية، كانت محلاةً يوماً بالأصداف.. فى العلبة خصلةُ شَعرٍ خشن، مغبَّرة، كانت يوماً ذهبية اللون.

وهى تقدم لها الخصلة ابتسمت العراقيةُ فبدت فوارغ أسنانها، وقالت ما فحواه: أنتِ مثل أختى، بل أنتِ الأخت التى لم تلدها أمى، ولأنى أعرف أنك وحيدة وسوف تبقين دوماً كذلك، فسوف أهديك هذا الكنز المخبوء منذ أزمنة غابرة، وهو لا يُقدر بثمنٍ ولن يُقدَّر يوماً.

- شكراً يا أختى، ولكن ما هذه الشعيرات؟

- هى خصلة من لبدة الأسد الذى عشقته عشتارُ فترة، ثم فتكتْ به بعدما ضعف عنها.

- عشتارا

- نعم، سوف تشعرين بقوتها إذا تحمَّمتِ ثم مررتِ بهذا الخصلة على أنحائك وحناياك، ولكن لا تفعلى ذلك فى النهار.

- حاضر. شكراً على الهدية، سأتركك الآن لأنك تحتاجين لمَّ بقية حاجاتك، وأحتاجُ أن أرتاح.. تصلين بالسلامة.

***

مثلما يحدث بانتظام كل صباح نقر "مسعود البواب" بابها بأظافره العتيدة، فأسمعها النقرات الخفيفة المعتادة، جالبة الطمأنينة. قامت متداعيةً ففتحت له الباب، وتناولتْ منه الخبز الدافئ وفول الإفطار.. "مسعود" لا يتخلَّف عن مُعتاده، ولا يخلف أبداً مواعيده: فى الساعة

التاسعة من كل صباح يأتى بالخبز الدافئ والفول المزوج بالخلطة، ويأتى أيام الجمع والآحاد بالطلبات من سوق الضاحية القريب، وتأتى له بالنقود وبما قد يكون مطلوباً لسداد الفواتير المتوفرة، التليفون المعطل وجمع القمامة والغاز والكهرباء والماء، وفقاً للاستهلاك. أما فواتيرُ الهواء فهى تُسدَّد مقدماً، لأن أنفاس الناس معدودة.

قبل سنوات بعيدة وفد "مسعود البواب" إلى هنا من قلب الصعيد، ولم يعد يوماً لزيارة بلدته. هى لم تسأله قط عن سبب انقطاعه عن أصله، وعلة بقائه بلا زوجة وسرّ التزامه الصارم بالمسار الذى لا انحراف له. الساعة السابعة صباحاً بالضبط، تسمع وقع أقدامه على الدرج الهابط من سطح البيت إلى "الدكَّة" التى عند الباب الحديدى، وفى التاسعة يأتى بالإفطار ويمده نحوها من دون أن يرفع إليها عينيه، ثم يقول باقتضاب العبارة ذاتها: صباح الخير يا ست هانم.

- صباح النور يا مسعود، شكراً، فيه أىّ حاجه جديدة.
- لا يا هانم، الحمد لله.
- تستاهل الحمد.

طيلة سنوات، ظلت تلك العبارات هى كل ما يتبادلاه يومياً، فهى لا تسأله عن شىء آخر، وهو لا يحدِّثها بأى أمر. لكنها كانت تسأل نفسها أحياناً فى ابتداء الأمسيات، السؤال الاستنكارى الذى سيأتى فى سياقه بعد حين.

طيلة النهار يجلس مسعود كالصنم ليحرس حديد الباب، وإلى جواره عصاه التى يعتدُّ بها ويعدُّها أفتك الأسلحة على الإطلاق. وهو

يؤمن بأنها سُميت "شومة" اشتقاقاً من الشؤم الذى تنزله على رأس أىّ جرئ يستحق على الجرأة العقاب، وهو يؤمن بأن مداومة همسه بالنصوص هى تميمةٌ تحمى من اللصوص، ويؤمن بأن الحافظ لا يغفل ولا ينام.. يقوم من جلسته الساكنة يوماً فى تمام الساعة الثامنة صيفاً، والسابعة مساءً شتاءً، فيغلق عليه وعلى البيت الخالى إلا من الهانم، الباب الحديدى مستحيل الفتح عسير الاقتحام، ثم يحمل عصاه ويصعد السلم إلى غرفته السطحية التى بلا باب، وبداخلها يطرح عنه جلبابه ويتهيَّأ لنوم السنُّور.. ليس من الوارد، بل ليس من المعقول أصلاً، أن يغيِّر "مسعود" شيئاً مما يفعله كل يوم.

***

السيدةُ الوحيدة، المالكةُ، ساكنةُ البيت الواسع. لا تستعمل من الغرف الكثيرة مغلَّقة الأبواب إلا غرفة نومها الفسيحة، ومنذ سنواتٍ لم تدخل إلا أصغر غرف الحمام الثلاثة، وهى لا تحتاج استخدام غرفة الطعام المتسعة كيلا تحتاج خادمة لتنظيف البيت أو إزاحة غباره. والمطبخ واسع. تسأل نفسها كثيراً، من دون أملٍ فى العثور على الإجابات: لماذا كانوا قديماً يوسِّعون المساكن، مع قلة عدد السُّكّان؟ لماذا لم يُقدم مسعود يوماً فيبادر إلى انتهاكها، مع أنها لن تقاومه إن فعل ؟ لماذا استغنتْ بطقوس خصلة الشعر عن كل الرجال، مع أن النساء تأنس بالرفقة وتحب صحبة الرجال؟ لماذا إذا أغلقت النوافذ كلها، والباب، تسمع أصواتاً خافتةً تأتى من جوف الغرف المغلَّقات؟ لماذا لا تؤجِّر الشقَّة التحتانية، مع أنها تسع

كثيرين والإيجار صار مرتفعاً؟ لماذا لم تُولد ذَكَراً..

بعد إفطارها على طاولة المطبخ، تبدأ ببطءٍ فى إعداد وجبتها الأخرى لآخر النهار، فتستغرق فى ذلك عدة ساعات، عمداً، وهى لا تأكل فى اليوم والليلة غير هاتين الوجبتين. بعد العصر تجلس ساكنة كى تتهيَّأ لطقوس المساء المتتابعة: إدفاءُ الماء بحوض الحمَّام، إضافةُ العطور، الاستلقاءُ فى حِضن الماء المعطَّر، الخروجُ بعد ساعة إلى غرفة النوم ورذاذ الماء يتقاطر عنها، إشعالُ الشمعة الوحيدة الموضوعة أمام المرآة، التفكيرُ الفادح فى الصلة بين المرآة والمرأة، تجفيفُ ما بقى عليها من الماء، التحديقُ فى بهاء التكوين والاستدارات. من دون اعتبارٍ لأىِّ ترهلٍ جانبىٍّ، ومن دون الالتفات إلى تجاعيد تبدو لها كأخاديد أرضٍ كانت يوماً مستوية.. ثم تبدأ من بعد ذلك استسلامها السحرى للدوامة الليلية باستدامة النظر إلى خصلة الشَّعْر الشبيهة فى فعلها بعُلبة ثُقاب، وتتشمَّمها بشغفٍ محموم. ثم تتوالى الطقوسُ على النسق المعتاد، ويتتالى: بدءُ الغياب عند شعورها بالدوار الخفيف الرهيف، رجوعها ببطءٍ إلى الوراء ثم الاستلقاء فى وهدة السرير الوسطى، استدعاءُ جميع النساء إلى كهف عشتار، عمقُ الغياب، تمرير أطراف خصلة الشَّعْر على جسمها، التنهُّدُ، الدوران بأطراف الشَّعْر الخشن على الحنايا المؤهلة للإلهاب، تمامُ الغياب، احتراقُ أنحاء الكون حتى يتصير الوجود الخارجى رماداً تذروه الرياح. وبعد الارتعاداتُ المؤدية إلى الغرق فى قاع بحار النوم، والرعشات، تسكن الشَّهقات.

***

في ليلةٍ شتويةٍ أدركها شعورٌ عارمٌ لا دافعَ له، عرفتْ معه وتيقنت من أن الأسد القديم قد ضَعُفَ عنها، فما عادتِ الشعراتُ المنهكة قادرةً على قدح الشرار. لم تنم ليلتها إلا وقد اقترب الفجر، وفهمتْ ساعتها ما سيكون في ليلتها المقبلة من اختلاف عما كان سابقاً وعما هو كائن الآن. نامت، فلم يدم نومها إلا ساعتين سريعتين غابت فيهما عن أصداء الصرخات الزاعقة بجنبات المدينة العجوز، حيث يصخب معظمُ المغتاظين ويتظاهرون بكثرتهم في الطرقات، أملاً في الحصول على ضوء الشمس بالمجان. مع أنهم يعرفون أنه لا شيء في المدينة يمكن أن يُمنح بلا مقابل، حتى تذاكر دخول الجنات بعد الممات.

في الصباح الباكر ابتهجتْ السيدةُ وقد امتلأتْ بحلم النوال المرتقب، وأسعدها الخاطرُ المراوغ المؤكَّد أن الليلة موعد عُرسها، وأن مسعود سوف يُدفيء قريباً هذا السرير ويُصلح بالنوم اعوجاج الفراش المقعَّر، ولسوف يُلهب بأنفاسه الحرَّى دثارها حتى الصباح. بلا قصدٍ منها ابتسمتْ فانحرفت أصابعها بإصبع الطلاء الأحمر عن الشفاة اليابسة، فأصلحت الخطأ ثم استكملت ما تفعله من لمساتٍ سحريةٍ بالمساحيق. لا يجوز لها أن تُبالغ في الزينة، فالمبالغة قد تخرجُ بكل أمرٍ عن قصده المنشود. ها هي الآن قد صارت أجمل، واقتربت الساعة من التاسعة صباحاً، وبعد دقائق معدودات سوف تسمع نقرات أظافر "مسعود" على بابها الموصود، غير المرصود.



نظرتْ السيدةُ إلى مسعود بالصبوة الجديدة، فرأته رجلاً مفعماً بفحولة آسرةٍ لا تُعلن عن نفسها بصخب. فالكتفانِ العريضانِ، والعنقُ القويةُ، والجلباب البسيط الدال على سموق الطول. تشى كلها بتمام الرجولة المطلوبة لهذه الليلة، وقد يدوم هذا المطلوب فى مقبل الليلات.. لمَ لا.

وهى تأخذ منه الأرغفة والفول، تأملتْ الخطوط البادية على ظاهر يده وعظام كَفِّه القوية، فاتَّسع فى نفسها الأملُ. لم يلحظ هو أنها ارتدت جلباباً أبيض محلًى من أعلاه بزركشةٍ كحلية تسرُّ الناظرين، وأن غطاء شعرها منسدل بغير قصدٍ إلى الوراء، أو بقصدٍ، وأن وجهها يشرق بابتسامة تمحو كثيراً من آثار الزمن. لم يلحظ، وربما يكون قد لاحظ وانتبه لكنه غضَّ البصر حسبما اعتاد. والاعتيادُ حجابٌ.

رأتْ أنه لا بأس لو سألته على غير المعتاد، عن حاله. وهو لم يجد بأساً فى أن يرد عليها بحمد الله والشكر له، لكنه بقى ناظراً إلى أسفل على سبيل التأدُّب فلم ير إلا طرف ثوبها السفلى المؤطر بخيوطٍ دقيقةٍ متداخلة، جميلةِ التصميم، وحذائها المنـزلى المغطى أعلاه بقطعةٍ من الفرو الناعم.. ماذا بعد؟ سألتْ نفسها عما يجب عليها المبادرة به كى تحرِّك سواكنه، من دون أن يبدوَ له الأمر مُبتذلاً، فهى تعلم أن الابتذال قد يثبِّط فورة الاشتهاء.

.. وكانت البداية، التى هى مقدمةٌ للنهاية، لحظة أمسكت بقائم الضلفة المفتوحة من الباب، بيدها الخالية من الخبز والفول، وبرفقٍ أمالت رأسها إلى القائم وميَّلت عينيها، ثم نغَّمتْ صوتها وهى تقول له

بنبرةٍ لم يسمعها من قبل، ما لم يسمعه منها من قبل:

- يا مسعود. أنا النهاردة هاطلب لحمة مشوية ورُزّ معمَّر، وهاعمل حسابك.. ابقى عدّى عليا بالليل قبل ما تطلع السطح، واتعشًّى معايا .. ههه.

- حاضر.. حاضر يا هانم.

حيرةُ فاهم

"ما يجرى فينا، دوماً، ومن حولنا، نجهل منه الكثير" . قلتُ ذلك لزميلى فى العمل، محمود الذُّهلى، وعلى ملامحى علاماتُ القلق والأسى مما أعاينه وأعانى منه. توقَّعت منه بعض التعاطف، لكنه قَهْقه ضاحكاً وأدار فى الهواء أطراف أصابعه مُتعجِّباً منى، ثم بدأ لومه اليومى لى بقوله: يا أخى بطَّل المبالغات بتاعتك دى. المهم، إيه اللى حصل، خلَّص ولخَّص.

كأنه كان بحديثه العامِّى هذا، المستخفّ، يصدُّنى عن مواصلة الكلام معه. فقطعتُ حبال الحوار ولم أحكِ له أى شىءٍ مما يؤرِّقنى، كى أرحم نفسى من نظرته الساخرة، وأحرمه من العبارة التى يقطع بها كل مرة أحاديثى الجوَّانية، قائلاً: يا عمّ روَّق كده، وفكَّك من الحكاية دى..

محمود مفكوكٌ من كل الحكايات، ومستهينٌ بكل الأمور. وهو لا يرى فى الحياة شيئاً ذا قيمة، ولا يعقد أمله على أىِّ أمر، ويرى أنه إلى حاله هذا مرتاح. وهو يزعمُ أن حياة الرجل تتلخَّص فى السعى لاصطياد النساء، والنساءُ حياتهنَّ تمضى فى الإيقاع بالرجال، ولا شىء عنده فى حياة الناس عدا هذا وذاك.. أقولُ له إن الحياة مليئةٌ بأمورٍ أخرى غير الاصطياد والإيقاع، فيضحك. وإن الكون فيه كثيرٌ من المعانى والغوامض المحيِّرات، فيضحك. وإن الحبُّ هو مفتاح اللحظات التى نشعر فيها بقوة الوهم الكاشفة لبقية الأوهام، فيضحك ويقول لى إننى أعيش فى الخيال وإذا عدتُ بعقلى إلى الواقع، لعرفتُ أن الحب هو ادِّعاءٌ وديعٌ تتعلَّل به المرأةُ لتصل إلى الرجل الذى يعجبها، ويتوسَّل به الرجلُ المهتمُّ كى ينال التى تعجبه من النساء، بأقل التكاليف.

ولأننا نقضى معاً وقتاً طويلاً فى العمل، بلا عمل، يُمرِّر "محمود" أوقاتنا بحكاياتٍ رخيصة عن فتوحاته السريرية، مستعيداً لذَّات انتصاراته الليلية المتوالية. وحكاياته كلها متشابهةٌ كمفرداته، ومسطّحة، حتى حين يطفح فمُه بالتفلسف الساذج والحكمة التافهة المازحة، كى يبرِّر بقاءه حتى عمر الأربعين بلا زوجةٍ ويتفنَّن فى تبيان أن الزواج، هو أفدح المشروعات خسارةً وأعلاها كلفةً، ولا يؤدى فى خاتمة مطافه إلا إلى وضعٍ وحيدٍ هو صراعُ عدوّين يسكنان تحت سقفٍ واحد.

***

ما يجرى فينا دوماً، ومن حولنا، نعرفُ منه القليل. قلتُ ذلك فى نفسى ساعةَ خلوتُ فى حجرة العمل الخاوية، بعدما زاغ "محمود" قبل وقت انصرافنا الرسمى، وترك لى بطاقة توقيع الحضور والانصراف لأمرِّرها له عند خروجى بعد ثلاث ساعات، وعند قدومى غداً فى الصباح. الحجرة الضيقة ساكنةٌ، ولا أحد من حولى، ولن أجد عند عودتى للبيت أحداً. والوحدةُ طاحنة. زوجتى "حنان" اشترطت علىَّ عند تصالحنا بعد آخر خلاف شَجَرَ بيننا، ألا أُضيِّق عليها فى خروجٍ أو غيابٍ عن البيت. فوافقتُ. لأننى لم أظنَّ أنها سوف تستغل الأمر بمثل هذه الطريقة، وأن المقدمات التى رتَّبتها سوف تقود إلى تلك النتيجة.. يومها قالتْ زاعقةً، ما معناه:

- أنا لستُ جاريةً تملكها.

- طبعاً يا حبيبتى.

- ولستُ موظفةً عندك توقّع على كشف حضورها والانصراف.

- أكيد يا حنان..

- وهذا البيت بيتى مثلما هو بيتك.

- صحّ، طبعاً.

- أنا لا أسالك أين تذهب، ولا أنتقد أصدقاءك ومعارفك.

- صحيح يا حبيبتى، ولكنى لا أذهب إلى أى مكان غير العمل، وليس لى أصدقاء.

- إنت حُرّ فى نفسك، وأنا كمان حرة.

- خلاص يا حنان، كونى على راحتك، المهم نخلص من النكد.

قدَّرتُ أن راحتها هذه عارضةٌ، وأنها كامرأةٍ تحتاج أحياناً شيئاً من الحرية اللازمة لكل إنسان، وأن النكد سيبتعد عنا والوئام سوف يسود إذا تجاوزنا هذا الخلاف.. ومن يومها ارتضيتُ بما اشترطته، فلم أعد أسألها عن سبب خروجها فى بعض الأيام طيلة النهار، ورجوعها متأخرةً فى بعض الأمسيات، لا سيما أن إجابتها الجاهزة كانت لا تتغير: "كنت مع صاحباتى." كما كففتُ عن انتقاد رفقتها الدائمة لابنة عمها "هويدا" المطلَّقة مرتين، المحتشمة فى ملبسها الخارجى وإن كانت نظراتها لا تعرف للاحتشام طريقاً.. لكن هويدا امرأةٌ لطيفةٌ فى العموم، وهى تعاملنى بنعومة مهذبة وتؤكّد لى دوماً أن حنان تُحبُّنى، ولن تستغنى عنى أبداً. فتطيبُ نفسى لهذا الكلام.

بالأمس أخبرتنى "حنان" التى تحبنى، ولن تستغنى عنى أبداً، أنها ستخرج اليوم ظهراً وستعود متأخرةً بعض الشىء. التزمتُ بما ألزمتُ

نفسى به، فامتعضتُ وما اعترضتُ. وليتنى ما فعلتُ. عندما عدتُ من عملى إلى شقتنا الضيقة التى حاربتُ الأقدار كى أستطيع شراءها بالتقسيط، وجدتُ الغرف والأنحاء ساكنةً. سكنتُ فى جلستى المعتادة على الكرسى "الأسيوطى" الذى لم يعد مريحاً. وانتظرتُ عودة "حنان" الحرة. التى خرجتْ مع صاحباتها لأنها أحياناً تحتاج شيئاً من الحرية اللازمة لكل إنسان.

بعد أذان العشاء الذى وصلنى صوته المتشابك من مكبرات صوت عديدة، أتانى من "حنان" اتصالٌ تليفونى تُبلغنى عدم استطاعتها العودة الليلة. لاضطرارها للمبيت مع "هويدا" لأنها مريضة. فاجتهدتُ فى كظم غيظى من المفاجأة السخيفة وسألتها بلسانٍ يضطرب، عن سرِّ هذا المرض الذى يفاجئ "هويدا" دوماً فى أول الليلات، وعن سبب الصخب الذى أسمعه من هاتفها، فأغلقت الخط بعدما قالت متعجِّلةً: وبعدين يعنى، عادى هىَّ تعبانه شوية، ودى دوشة الشارع، نام انت دلوقتى ومتشغلش بالك. بكرة ترجع من الشغل تلاقينى فى البيت.

***

ما يجرى فينا دوماً، ومن حولنا، لا ندرى عنه شيئاً. خطر ذلك ببالى بعدما توغَّل الليلُ بوحدتى، وحرمنى من نومى القَلق، فقررتُ أن أستشير "محمود" غداً فى أحوال "حنان" حين يسألنى عنها، مثلما يفعل عادةً ليطمئن عنىَّ. وسوف يُصدقنى القول فى تفسير ما يحيِّرنى من أحوالها وأفعالها الغريبة، وهو خبيرٌ بأمور النساء وسوف يريحنى

كلامه المتسطِّح المعتاد، وقد تُقنعنى عبارته الدائمة: يا عمّ روَّق، وفُكّك من الحكاية دى..

لا، لن أستشير أحداً. وقد بُحتُ لمحمود قبل شهور بشكوكى وطغيان حيرتى، فتلطَّف يومها فى الكلام معى على غير عادته، وتقرَّب منى بعدها حتى دعوته يوماً للغداء بمنزلى بعد انقضاء وقت العمل، ويومها لاحظتُ عندما عدتُ من غسل يدى بعد الغداء، أنه وزوجتى يتبادلان نظرةً غير مريحة ويبتسمان بلا سبب، فلم أستقبله بعدها فى بيتى. فلا معنى الآن لإعادة هذه الكرَّة، ولأطبق ما كان أبى يكرِّره على مسامعى من نصوص الحكمة الخالدة، مثل: الصمتُ أسلمُ عند الابتلاء، والاستتارُ أكرمُ.. ما حرَّر المرأة، إلا إبعادها عن الرجال.. لكل إنسان من اسمه نصيب، و مادام اسمك "فاهم" فلا بد أن تفهم فى خاتمة المطاف.

"فاهم" هو اسمى الخامس الذى يعتزُّ به رجال عائلتى جميعهم، ويتخذونه لقباً، وقد أخبرونى منذ الصغر بأن جدى الخامس هذا كان اسمه "فهمى" وهو لم يُتمّ تعليمه لكنه كان حكيماً مُحنّكاً، فأسماه الناسُ "فاهم" وأحاطوه طيلة حياته بالإحترام. عليه رحمة الله. كلامك كان كله حكمة يا أبى، ولكن لماذا أرانى غير قادر على فهم حنان أو التفاهم معها؟ لعله الحب. كان أبى يقول إن المحبَّ يحسُّ بالأمور لكنه لا يفهمها، بسبب تعطُّل العقل عندما يتهيَّج القلبُ ويتقلَّى بنيران المحبة. وقد يكون مع الحب كثيرٌ من التفهم و التقبُّل، ولكنه لا يوصل أبداً إلى الفهم لأنه لا يعرف الحياد.

وكان أبى يرى أن "حنان" هى أصلح النساء لى، لأن أباها أحسن

تربيتها فنشأتْ على أفضل ما تنشأ عليه البنات، ولسوف تكون لى خير زوجة ولأبنائنا خير أم. ومات، فلم يعرف أن حنان ترفض الإنجاب أو هى تؤجِّله، زاعمةً أننا يجب أن نستمتع بحياتنا الزوجية فترةً قبل انشغالنا بالأطفال. لكننا صرنا الآن لا نستمتع بشىءٍ، وقد مرَّت خمس سنواتٍ على زواجنا الصموت السكِّيت، ولا طفل فى المنزل يصخب فننشغل به، ولا حنان تبقى بقربى فتشغلنى وأنشغل بها.

وكان أبى يقول إن الحب يختلف عن بقية المشاعر والعواطف، لكن الناس لا تفهم ذلك فيخلطون بين ما لا يجب أن يختلط. فالحبُّ حسبما كان أبى يقول هو ما يكون بين الذكر والأنثى، وهو متطوِّر الأشكال ولا يكاد يستقرّ على حال.. هذا هو الحب، أما ما يكون بين الأم وأبنائها فهو الأمومة التى هى حسبما أخبرنى أبى، أقوى العواطف الإنسانية والطبائع الحيوانية على الإطلاق، ولا تطوُّر فيها. لم أعرف معنى كلامه هذا، لأننى حُرمت من أمى أيامَ كنتُ طفلاً غير واعٍ بشىء.

وكان يقول إن العواطف مترابطة، فالأمومة تتصلُّ بالعواطف الأخرى وترتبط بالأبوة وبالأخوَّة وبالقرابة، أما الحبُّ فلا يرتبط بشىءٍ، ولا شرط له. فالحبُّ مفردٌ لا يُجمع، والعواطفُ جمعٌ لا يُفرد.

***

لن أمضى طيلة ليلتى هذه متقلِّباً بين هذه الهواجس والهموم، واستعادة عبارات الحكمة الأبوية. لا. سأقوم الآن فأرتدى ملابسى بسرعة، ولسوف أصلُ بسرعة إلى بيت "هويدا" لأن الشوارع الآن

خالية.. أعرفُ أننى لن أجد "حنان" عند "هويدا" ولن أجد أحداً فى البيت. وسوف أتردَّد حيناً، ثم أنطلق إلى غرفة "محمود" المستأجرة فوق سطح البيت القديم بالحىّ الراقى، وقد أجد حنان عنده فأسحبها من شعرها المنفوش إلى المأذون، فأُطلِّقها. وفى الصباح لن أذهب إلى العمل، طبعاً، وسأعود محطّماً إلى هذا المنزل الخاوى وأهيمُ فى خوائه وخوائى. ولسوف أمرُّ بفترةٍ عصيبة، حتى تمرّ الأيام المُرّة وأجد امرأةً أخرى، حنان أخرى، تكون لى خير زوجة، ولأطفالى خير أم..

ولكن، ماذا لو كانت حنان مظلومة، وإننى لو ذهبتُ إلى بيت "هويدا" سأجدها بالفعل مريضة وزوجتى تداويها، سيكون منظرى أمامهما مُزرياً وقد تنفجر فىَّ "حنان" وتجعل منى نموذجاً بشعاً للزوج المستريب فى زوجته الطاهرة، الحرة. ولا شىء هناك أصلاً من شأنه أن يثير أو يُبرّر هذه الريبة التى تهتاج الآن فى نفسى. سأنام.

.. الصبحُ أطلَّ، ولم أنم، ولا فهم عندى لما يجرى من حولى ولا قدرة لى على أى فعل. طيب، لن أفعل أى شىء وسأكفُّ عن السعى إلى الفهم، وأقاومُ الاعتقاد بأن لكل إنسان من اسمه نصيباً، وبهذا أرتاح حيناً. لا بأس، سأنام وأصحو بعد ساعة، ومستسلماً لأقدارى سأهبُّ من رقدتى نشطاً فأذهب إلى العمل. ولن أعمل شيئاً، وفى موعد الانصراف سوف أعود إلى البيت فأجد امرأةً اسمها "حنان" كانت ذات يوم حبيبةً وزوجة، ثم صارت رفيقة سكن.. وسأسكتُ لأن السكوت فى البلايا أسلم، والاستتار أكرم.

حكاياتُ الوحيدة

بعد إلحاح صاحبتها التى أصرَّتْ على اللقاء بها فى المساء، استجابت "سلوى" ووافقت مضطرةً، مع أنها كانت تودّ التهرُّب أو إرجاءَ اللقاء إلى الغد، أو إلى موعدٍ غير محدّد.. جاراتها، وزميلات الدراسة والعمل، وصاحباتها القديمات والجديدات؛ صرن فى الفترة الأخيرة يتوافدن عليها ساعياتٍ إلى الجلوس معها كى تستمع إليهنَّ، لأنها حسبما يؤكِّدنَ تُجيد الاستماعَ، وتُشير عليهنَّ دوماً بأفضل الآراء. مع أن "سلوى" لا تُبدى بعد الاستماع أو خلاله، أىَّ رأى، فهى تسكن فى جلستها وتهزُّ رأسها للحاكية كأنها تتابعها باهتمام، فتكون فى تلك الجلسات مثل كاهنٍ يسمع اعترافات فقدت قدرتها على إثارة الدهشة.

علٰى درب الملل، مَرَّ أوانُ العصر على "سلوى" ثقيلَ الأنفاس، فلم يبق على موعد مجيء صاحبتها "إلهام" إلا ساعتان أو أقل قليلاً. وقد انتهت قبل قليل من إعداد صالة بيتها لأمسيةٍ حكائيةٍ قد تمتدُّ من أول الليلة إلى منتصفها، وتشاغلت بتفاصيل الإعداد اللازم للجلسة، ولم يعد هناك ما تفعله لتقطيع الوقت واحتمال سُخف الانتظار.. ولمّا استبدَّ بها السأمُ استلقتْ "سلوى" على ظهرها، فى طرف سريرها وأسلبت عينيها برفقٍ انتظاراً لوصول ضيفة الأمسية، وأملاً فى اختطاف سويعة نعاس، وتلافياً لارتداء الفستان المعلّق خلف الباب قبل مجيئ الضيفة بوقتٍ أطول.

وهى على تلك الهيئة المسترخية، غير المستريحة، طوّفتْ الأفكارُ برأس "سلوى" وطوَّحتها حتى أخذتها منها خواطرُها الدافقة، التافهة، فسألتْ نفسها فى سرِّها: لماذا لم أبدِّل اللمبات الثلاث "المحروقة" فى

هذه النجفة؟.. لا يهم. ولا داعى للعجلة. فأنا لا أحب دخول الكهربائىّ غرفة نومى، ولا أطيق شعورى بأن رجلاً يتحرك فى فضائى الليلىّ وحدودى المنامية. وتبديل اللمبات ليس أمراً عسيراً، يمكننى إرسال "البواب" لشراء لمبات، وأفصلُ عن أسلاك الشقة الكهرباء. وأقفُ على قائم السرير فأُبدِّلُ الجديدة بالمحروقة.. لا داعى للعجلة، وضوءُ هاتين اللمبتين الباقيتين من الخمسة، أهدأُ وأنسب لغرفة نومى الحاضنة، الضيّقة. اللمباتُ صارت قصيرة العمر. لعل هناك عطباً فى أسلاك "النجفة" يحتاج إصلاحاً، وقد يحوجنى ذلك إلى إتاحة حصنى لاقتحام مسموحٍ به.. اقتحام.. مضى وقتٌ طويلٌ على آخر مرةٍ دخل فيها رجلٌ هذه الغرفة، ومنذ شهور لم تسبح أنفاسٌ ذكورية فوق ملاءة سريرى.. لا يهم، لا أرانى أفتقدُ شيئاً عظيماً.. نعم، يمكن للمرأة أحياناً أن تستغنى عن الرجال، يمكنها ذلك إلى حينٍ قد يطول.. آه، يمكنها.

الصاحباتُ اللواتى قررن أن أكون لهنَّ نعمَ السميع، يشغلن أوقاتى التى يجب أن أشغلها بالبحث عن عملٍ جديد بعد استقالتى المتعجّلة من وظيفتى السابقة، السخيفة. العملُ ما عاد مُحتملاً. فى وظيفتى السابقة ظللتُ أجهد روحى شهوراً، وأنهك أنحاء جسدى بالتوتّر الدائم، حتى امتلأت بالملل فانفجرت بالرفض ثم استرحتُ حين استقلتُ منه فجأةً.. لو كان بيدى رصيدٌ كاف، لما اضطررتُ للبحث عن وظيفةٍ أخرى، ولكنتُ قد عشتُ مستمتعةً بوحدتى نهاراً، وبجلسات الصاحبات الحاكيات مساءً.. ستأتى "إلهام" بعد قليل، وتحكى باستفاضة مثلما تفعل الأخريات. تُرى، أىُّ رجل سيكون محور حكايتها، وأىَّ مللٍ سوف تثيره

فى أنحاء روحى؟ حكاياتُ صاحباتى تدور غالباً حول الرجال، ومعظمها يحكى القصة ذاتها بتفاصيل قليلة مختلفة، فالأمرُ دوماً يبدأ باحتيالٍ مكشوفٍ ثم يحطُّ فى ختام التطواف عند دناءة رجل.

للرجال فى حكايات النساء وجوهٌ لا حدَّ لها، كلها حقيرة. فآونةً يكون الرجلُ هو الحبيبُ غير الملتفت لأنه يلتفت لامرأةٍ أخرى أو يتلفَّت إلى كل النساء، وآونةً هو زميلُ العمل المستهدَف لزيجةٍ لكنه يجتهد ويحتال حتى ينفلت منها، وتجتهد الحاكيةُ وتحتال لإقناعه بها. وآونةً هو المديرُ الحنونُ عند اللزوم، أو المتحرِّشُ تلميحاً بالنظرات وتصريحاً بالعبارات متعددة المعانى، ثم يكشف فى الختام عن رغبته الذكورية المؤقتة. وآونةً هو الرفيق السابق الذى تحامق ثم نقم بلا سببٍ، أو بسببٍ لا يستحق هذه النقمة، ثم صار معذَّباً بالابتعاد أو مشتكٍ من شدة الاقتراب.. الرجلُ عند النساء هو البدءُ والمنتهى، وهو المدارُ الدوَّار، واللاعبُ الملعوب به. وهو فى معظم الحكايات الشاكية، وضيعٌ.

***

حين صدح جرسُ الباب فى تمام السابعة مساءً، ألقت "سلوى" عليها فستانها واستقبلت باسمةً صاحبتها "إلهام" الساكنة قُربها فى شقة صغيرة، لا تبعد إلا دقائق معدودات سيراً على الأقدام فى غبار الشوارع.. كانت "إلهام" زميلتها فى المدرسة طيلة سنواتٍ انتهت بالافتراق المؤقّت، لاختلاف الدراسة الجامعية، ولما قابلتها صدفةً قبل أربعة أعوام عاد الوصالُ وتكرَّرت اللقاءات، فاتصل ما كان قد انقطع

خلال سنوات الابتعاد العشرة، والتحمتْ بالحكايات حياتاهما حتى ظنَّت كل واحدةٍ منهما، أن الأخرى صديقتها الأقرب وشقيقة روحها.

على الترتيبِ المعتاد الواجب، قامت "سلوى" بكل ما عليها تجاه "إلهام".. أظهرتْ لها أولاً الترحاب المحتفى بالزيارة، وبالابتسامات أجلستها على كرسيها المُفضّل فى الصالة، وبينما تصبّ لها الشاى الساخن استفسرتْ عن جديد أحوالها. وعلى الترتيبِ المعتاد المُتوقّع، أعربتْ لها "إلهام" أولاً عن المحبة التى تجعلهما مثل أُختين، ثم اعتذرتْ عن انقطاعها عنها الأيام الماضية للسبب الذى وصفته بالشديد القوى، وتهيّأت للحكى بإسالة دمعات كفيلة بجذب الاهتمام. ثم قالت ما فحواه:

خلاص يا سلوى، أنا تعبتْ. ما عدتُ قادرة على احتمال هذا الحال، ولا أعرف كيف أتصرّف. زوجى خدعنى مجدداً، مثلما كان يخدعنى منذ يوم زواجنا، ويمتصّ رحيق روحى طيلة السنوات العشرة الماضية. أقنعنى بأنه يُحبنى، وكنتُ أحتاجُ هذا الاقتناع، فآمنتُ بكل وعوده. فى أيامنا الأولى عشتُ معه أهنأ اللحظات، ولم أشكَّ يوماً فى صدق مشاعره الفيّاضة، وصدّقتُ ما كان يصفنى به وأحببتُ وصفه لى بأننى نورُ عينيه ومنتهى أمله. كان يا سلوى يسعدنى حين يقولُ لى أنه كان كالميت حتى تقابلنا، فعاش ومعى عرف معنى الحياة وأدرك أن الله خلقه من أجلى فقط، وجعله المسؤول عن إسعادى.

كان يا سلوى يهمسُ قُرب أذنى بأننى المرأة الوحيدة فى حياته، وبأنه لم يعرف قبلى النساء ولن يعرفهنّ بعدى، لأننى عنده كُلُّ النساء.

جعلنى أبتهج بمؤانسته وأفرحُ بأحاديثه الليلية الهامسة، وأعتاد عباراته النهارية. ولهذا قبلتُ به زوجاً وهو الذى لم يكن يحلم بمثلى، واجتهدتُ له وجاهدتُ فيه حتى جعلته سعيداً بعدما كان تعيساً، وصار معى مرموقاً وهو الذى لم يكن قبلى شيئاً مذكوراً.

أهذا جزائى يا سلوى؟ أهذا جزائى.. بعدما أقنعنى بأنه سيكون لى نعمَ الصاحب، وسوف يصير لى طيلة العمر خير زوج ورفيق. وقال مراراً إنه سيترفّق بى دوماً، ولن يشتدّ إلا عند حمايتى. امتلأتُ به فلم أرَ غيره. وفى بداية حياتنا معاً عايشتُ أوهامَ الأمان التى شعرتُ بها فى حضنه الحانى، وتوهّمتُ أنه هديةُ لى من السماء حتى صدمنى اليوم بحقيقته المفزعة.

انكشف المستور يا سلوى، انكشف.. وأدركتُ أنه كان يحتالُ علىّ ويكذب فى كل كلامه، كى ينال منى ما استولى عليه. أخذ كل شىء. أرضى الواسعة وخيراتها، وثمار حدائقى، وأحلامى المستحيلة، وأموالى السائلة. وبعدما استولى علىَّ وتولّى أمورى كلها، رمانى مثلما يرمى الرجالُ النساء اللواتى بلا مالٍ ولا جمالٍ، ثم انصرف عنى بقلبه وعقله حتى صرتُ الآن أراه حقيراً، وهو الذى كان عندى أعظم العظماء.

ماذا أفعل الآن يا سلوى، بعد ما فات الآوانُ وخسرتُ كُلَّ شىء؟ ماذا أفعل.. أصبحتُ أفكّر كثيراً فى الانتحار.

***

"سلوى" اتّسعت عيناها دهشةً، وظلّت صامتةً تنظر بذهولٍ

إلى "إلهام" التى حكت مأساتها بمرارة مؤلمة، فلما انتصف الليلُ أجهشتْ.. ساد صمتٌ أسودُ الأجنحة، واحتارتً "سلوى" حيناً ثم امتلأت من صاحبتها رهبةً، وتنازعها خَوفٌ منها وخوفٌ عليها.

فى خاتمة الأمسية لم يكن أمام "سلوى" إلا سبيلٌ وحيد، هو التسليمُ بأمَر الله والاعترافُ لنفسها بأن "إلهام" تدهورت إلى حدٍّ لا رجوعَ من عنده، ولا شفاءَ له، وأن وحدتها غلبتها فانزلقتْ إلى تلك المهاوى.. ما كانت "سلوى" تتوقع لصاحبتها هذا المآل، مع أنها كانت تعرف تفاصيل حياة "إلهام" كلها، وتُدرك أن المسكينة تُعانى أعراضَ الوحدة منذ انفرادها بعد وفاة أمها قبل عشرين عاماً، وأنها تُعاين منذ بلغت الأربعين من عمرها أوهام العنوسة. التى اهتاجت حتى أوصلتها الخيالاتُ إلى حدِّ الجنون.

صالةُ الوصول

فى آخر يوم من العام الماضى، أخبرتْ "إيمان" زميلاتها فى العمل بأنها سوف تطلب إجازة طويلة، اعتباراً من اليوم التالى، فأثار طلبها حيرة العاملات معها بالنَّوبة النهارية فى كافيتريا صالة الوصول بالمطار. هى ليست الكافيتريا الدائرية العامرة بالزبائن التى فى قلب الصالة، وإنما تلك المنزوية بالركن الأقصى من صالة الوصول الواسعة، حيث تقلُّ حركةُ الواصلين والمستقبلين فتندر الزبائنُ. ومع قلّة الأعمال المطلوبة منهنَّ، تسنح للعاملات فرصةُ الغوص فى التفاصيل التى تهرّأت من كثرة الكلام، المسلّى أحياناً المملّ غالباً.

زميلتُها المتلوّنةُ الممتلئةُ البيضاءُ القصيرةُ "نوال" التى ينادونها طيلة الوقت "نونو"، نصحت إيمان بأن تؤجّل طلب الإجازة أسبوعاً حتى ينقضى الازدحامُ الموسمى المتوقع فى إجازة رأس السنة، وحتى تضمن موافقة صاحب العمل المتذمّر دائماً "الأستاذ سمير" على الطلب. لكن إيمان أصرَّت على ما تريد .

"نهلة" زميلتُها الأخرى الحسناءُ، الطويلةُ، فوّاحةُ الأنحاء بأنوثة فطرية لا حجبَ لها ولا سيطرةَ عليها، المسمّاةُ فى كلامهنَّ اليومىِّ "نانا" سألتها باسمةً عن سرِّ هذا الطلب المفاجئ، وتوقعتْ أن يرفضه صاحبُ العمل مُحتجّاً بأنها أيامٌ (مفترجة) ولا تجوز الإجازات فيها، وألحّتْ عليها كى تكشف مستور الأسرار وتفصح سبب طلب الإجازة. لكن إيمان أنكرت وجود أىّ سرٍّ أصلاً، و أصرّت على الطلب.

زميلتُها الأخيرةُ انضماماً إليهنَّ، السمراءُ، المُدلّلةُ بينهنَّ بالاسم "نوده" لأن اسمها "نهاد" مع أن صدرها هابط، لم تُعلّق على طلب إيمان

الإجازة ولم تتفاصح فتنصحها بشئ، ولم تستخبر منها عن سرٍّ هذا الطلب وسبب إصرارها عليه. لكنها أسرَّت فى نفسها الأسئلة المستفهمة، والخواطر المتدفِّقة مع نهر أفكارها المستترة، التى لو نطقتْ بها لقالتْ: البنت إيمان هذه غامضة، ولا يمكن فهمها مهما حاولنا، فهى لا تسهبُ فى أى حديثٍ ولا تخوض مع الخائضات لدفع السأم، وتسرحُ كثيراً بنظراتها فى فضاء الصالة وتتصفّح طيلةَ الوقت وجوهَ الواصلين كمن ينتظرُ أحداً، وأحوالها عموماً لا تفسير لها. البنات أخبرننى بأنها تعمل هنا منذ سنواتٍ ثلاث، لم تتأخّر فيها يوماً عن موعد نوبة العمل، مع أنها تأتى من بيتها المطمور فى حارة صغيرة بحيٍّ "المطرية". ومعروفٌ أن الطريق من هناك إلى هنا يزدحمُ فى معظم الأيام، وقد يعوق أحياناً لحاق المسافرين الساهين بطائراتهم. والبنات أخبرننى بأن إيمان يوم جاءت تطلب وظيفتها هنا، نالتها على الفور وانتظمتْ فى العمل من اليوم التالى مباشرةً. ربما لإشفاق صاحب العمل عليها وشعوره بأنها تحتاج العون وسوف تكون شاكرةً، وربما لأنه طمع فيها مثلما يفعل مع كل فتاةٍ يراها مقهورةً ومُحتاجةً إلى صدره الحانى، وربما لأنها كانت إرادة اللّه موزّع الأرزاق.

لو كان الأستاذ "سمير" الشهوانى بلا حدود، قد نال "إيمان" مثلما حظى بالأخريات العاملات هنا، وأنا منهنَّ، لَمَا صبر على غرائب أحوالها وكثرة شرودها وظل يلاحقها بعينيه الجاحظتين كلما مرَّ علينا خلال النهار. يبقى هنا يومياً حوالى ساعتين يجلس فيهما مستمتعاً بمداعبة "نانا" بساخن التعبيرات، أو يحملق فى أنحاء "إيمان" كما

يفعل المحرومون من اللحم حين يرونه وبعد ذلك يتركنا ويذهب للمرور على "الكافيه" الكبير العامر الذى يديره فى وسط البلد.

الأستاذ "سمير" نسميه أمام الناس الأستاذ، وندعوه فيما بيننا "المنيِّل". نُظهر له أمام الجميع الاحترام، وعند الانفراد به نتهامس معه بساقط الكلمات التى يحب الاستماع إليها، ويميل إلى الاستمتاع بها ببهجة لا تعرف الملل. مع أنه بلغ من عمره الستين، سنَّ الملل. وقد كنتُ أظن أن الرجل إذا بلغ الستين، وجب عليه الملل لاهتمامه بلحظة موته المرتقب، لكن هذا "المنيّل" دلّنى على أن الرجال لا علاج لهم من اشتهاء النساء، وليس لهم من هذا الداء دواء. هو يفتخر بأنه ناجحٌ فى عمله، مع أنه تورّط بحمقٍ فى عقد إيجار هذه الكافيتريا، لمدة خمس سنوات، ولم يتوقّع كساد السوق خلال الفترة الماضية. ولا كان غيره يتوقّع شيئاً مما جرى. وهو يفتخر بأنه أكثر الرجال فهماً للمرأة وحبّاً لها، ويخدع سامعيه بادّعائه الدائم أنه "بيتوتى" لا يبيت خارج منزله ليكون دوماً بين زوجته وأطفاله. مع أنه يعود كل يوم إلى بيته قبيل الفجر، نصفَ نائم. وإذا اطمئن لمن يحادثها ليستجلبها إليه، أفاض عليها بالمزيد من نظرياته العجيبة التى يظنها اكتشافات عبقرية: معظمُ البنات غير راضيات عن الأسماء التى اختارها الأهلُ لهنَّ، لأنهنَّ غير راضيات عن أهلهنَّ، ولذلك تُنادى البنات بعضهنَّ بعضاً بأسماء تدليلٍ لم يختَرْها الأهلُ. ولو كانوا قد اختاروا لهنَّ أسماء التدليل ذاتها أصلاً، لكانت البنات قد تنادين فيما بينهنَّ بأسماءٍ غيرها.. تلك واحدة من نظرياته الطافحة بالسُّخف.

فإذا اطمأن "المنيّل" لمن يُحادثها، وأحسنتْ الاستماع إليه وأظهرت الاستمتاع بروعة خبرته، زادها نظرية أخرى أكثر سخفاً: البنات من العشرين إلى الثلاثين تضيع أعمارهن عبثاً، لأن الزواج صار نادراً وشبه مستحيل، ولا مجال أمامهنَّ لعمل علاقات مع الشباب الذين فى مثل أعمارهن، لأن هؤلاء الشباب فقدوا القدرة على عمل العلاقات من كثرة إدمانهم تدخين الأنواع الرديئة من المخدرات، ولأنهم دوماً فى حالة "تَوَهان" وصِحَّتُهم أصلاً غير سليمة بسبب الأكل الملئ بالهرمونات.

فإذا وافقته الفتاةُ السامعة، أضاف إنه يحب العطف على الفتيات ويميل إلى مساعدتهن، ولذلك فهن يعشقونه.. وإذا بلغ مداه مع التى يُحادثها، افتخر أمامها بأن اللواتى خلعنَ أمامه ملابسهنَّ تخطى عددهنَّ الألف، وبعد هذا الرقم كفَّ عن العدِّ. وهو لا يخجل أمام العذراوات، من تكرار عبارته الرقيعة: بعون الله، أنا سكّتى مع النسوان مفتوحة على البحرى، ومعرفش حاجة اسمها الفشل.

بعد انقضاء أسبوعٍ على استلامى العمل واعدنى "المنيّل" فى شقةٍ مفروشةٍ بائسة الحالٍ، تقع فى شارعٍ جانبىٍّ متفرّعٍ من شارعٍ واسعٍ يتفرّع من طريق المطار، ومن يومها عرفتُ أنه غير قادرٍ إلا على الملاعبةِ السطحية، ولا يسعى للإيلاج. لأنه يخشى الوقوع فى حدِّ الزنا. حسبما يقول. وبعد أسبوعٍ من لقائنا السريرى صارحنى بأنه يشتهى "إيمان" ولا يستطيع إليها سبيلاً، مع أنه يسعى إلى نوالها منذ عامين ومستعدٌّ لبذل أى شئ فى سبيل ذلك، حتى لو اضطر إلى الزواج بها عرفياً وحتى لو كانت "إيمان" غير عذراء. قلتُ له أن العذرية صارت ميسورةً وتُباع

بدائلها اليوم فى الصيدليات بثمن بخس، فقال إن ذلك لا يهمّه فى شئ، لكنه يظن أن هناك مشكلة خفية عند المحروسة. هو يسمى إيمان "المحروسة" ويتمنّى أن يعرف حارسها، ليقضى عليه فينفسح أمامه مجالها ويستبيحها لنفسه المتحرّقة اشتياقاً إليها.

بعد مرور شهرٍ على عملى عنده، وثلاثة أسابيع على علاقتى به طلب منى أن أساعده فى الوصول إلى "إيمان" فاستعفيتُ، فألحَّ، فنصحته بأن يهديها حمّالة صدر. فإن أخذتها منه، عليه أن يشترى لها بعد يومين ملابس داخلية مكشوفة. فإن أخذتها منه يخبرها برغبته فى رؤيتها ترتدى الملابس، مع وعدٍ بأن يهديها فستان سهرة لتحضر به الأفراح والمناسبات السعيدة.. لم تنجح هذه الطريقة، مع أنه بدأ بحمّالة صدرٍ من النوع الغالى "ترينف" الذى تحبه مثيلات "إيمان" من ذوات الصدور المبهجة الممتلئة، المثيرة لاشتهاء الرجال وحسد النساء.

ماذا أفعل معها؟ سألنى بحرقة متحسّراً على حاله، فأجبته باختصار "اطلبها للزواج" وكنتُ واثقةً من أن المحاولة ستنجح، لكن إيمان تبجّحتْ ورفضتْ الزواج به عرفياً أو رسمياً. بعد فشله ورفضها طلبه، جرّب معها الوسائل الذكورية المعتادة فاشتكى لها من زوجته التى لا تتزيّن له وتُهينه أمام أولاده، فلم تتعاطف إيمان معه ولم تسمعه بالإنصات المناسب، ولم تساير كلامه بشىء.. حاول استمالتها بزيادة راتبها الشهرى مع أن أحوال العمل ليست جيدة، وجعلها الأعلى راتباً منا جميعاً، ولكنها لم تهتمّ وتجاهلت هذا الأمر المهم.. وصل به الحالُ إلى الاحتيال، فاصطنع الجديةَ وناداها قبل أسبوعين للجلوس معه لأمرٍ

قال إنه مهمٌّ، وانفرد بها عند الطاولة المنسية خلف الكافيتريا، وهناك صارحها بسطوة حُبّه وقوة اشتياقه إليها. انهمك يومها فى الحكى حتى بكى أمامها مثلما يفعل الرجال المتحرِّقون إذا حُرموا، فتركته جالساً وانصرفت بحجّة أن العمل يحتاجها وأن ألسنة البنات لا ترحم.

***

ساعة الظهيرة، وفور مجيئه، نظر سمير "المنيّل" باستغراب إلى إيمان التى استقبلته بطلب الإجازة، وأحسّ لبرهة بما فقده سابقاً من الأهمية والقدرة على اتخاذ القرارت.. تذاكى عليها أول الأمر، بأن مال بكتفه إلى اليسار قليلاً وسرح بخواطره ليصطنع السيطرة على الموقف، وبعد لحظة صمت مُتبادل سألها عن سبب الإجازة فى هذا الوقت، فقالت إنه سبب شخصى. تساخف بنبرته وهو يستعلم منها عن مدة الإجازة التى تريدها، فأدهشته بقولها: "أسبوع، أو عشرة أيام، أو أكثر من ذلك إن أمكن"! ..ساعتها أحسَّ بأن فشلَه الإدارى بلغ المدى، وشعر بأن "إيمان" تخرج عن سيطرته فتستحيل أمانيُّه فيها، فاهتاج وهو يقول:

- أفهم من كده، إنك ناوية تسيبى الشغل خالص؟

- يمكن.. جايز.

- آه. كده بانت، يعنى جالك شغل تانى .. طيب هاتخدى هناك كام فى الشهر إن شاء الله؟

- معنديش أى نية لشغل تانى.

- وبعدين معاكى يا إيمان. أنا مش فاضى للكلام ده، وعندى مشاكل كتير. قولى على طول، إنتى عايزة منى إيه؟

- أجازة.

- طيب مش لازم يعنى من بُكرة؟

- لأ، لازم.

- بس أنا مش موافق، ولوعايزة تسيبى الشغل عندى إنتى حُرة، ممكن تمشى من دلوقتى.

- وماله.. مع السلامة يا أستاذ سمير، أشوف وشّكم بخير يا بنات..

- مع السلامة ياختى، رُوحى والقلب داعيلك.. كفايانا قرف.

***

تركت "إيمان" العمل بالكافتيريا فى منتصف اليوم، بعدما استدام انتظامها الصارم منذ صبيحة أول أيام الشهر الأول من العام الحادى عشر بعد الألفين. وكان من عجيب أمرها بالنسبة لمن يعرفونها ولا يعرفونها، أنها طيلة سنوات عملها ظلت مواظبة وملتزمة تماماً بما عليها، فلا تكلّ إن توافد زبائنٌ فكثر العمل ولا تتذمَّر إن ندر مجيء فدام الملل وانعدم "التِّبس" الذى كانوا فيما سبق يسمونه البقشيش.. والأعجب، أنها كانت تجعل يوم راحتها الأسبوعية موافقاً لليوم الوحيد الذى لا تصل فيه طائرةٌ من الكويت، وعندما عدّلوا جدول الطيران بعد جريان الأهوال، عدّلت موعد راحتها ليتوافق مع يوم راحتهم.

ما هو سرُّ إيمان؟

عند خروجها فى غمرة الواصلين والمُستقبلين، كانت الأنحاءُ خارج صالات الوصول والسفر صاخبةً كالمعتاد بحركة المودِّعين والمودَّعين، وفى وسط الزحام أدركتْ "إيمان" على نحوٍ خفىٍّ أن كلَّ حركةٍ وداعٌ، وعرفت أن آخر خيط كان يربطها بوجودها الحالم الخدَّاع قد انقطع.. فقد أدركتْ أخيراً أنَّ كلَّ حالمٍ، هو إما مخدوعٌ وإما خادعٌ.

***

لن يعرف أحدٌ سرَّ ما جرى خلال السنوات الثلاث التى عملت فيها إيمان بصالة الوصول، وما هو سبب خروجها من هناك فجأة، ثم انحرافها واحترافها مَنح الهوى وتأجير فواكه أرضها. ولن يعرف أحدٌ أنها صارت الآن يائسةً تماماً، ومستسلمةً للأسى، لا سيما أنها أمست تُتقن رسم الابتسامات على وجهها كى تصير أجمل.

والآن، لم تعد "إيمان" المسكينة تذكّر نفسها بالسنوات التى انتهت يوم خروجها شِبه مطرودة من العمل بصالة المطار، وابتدأت يوم توديعها حبيبها بالمطار ذاته.. حبيبها، الذى زهد شهادته الجامعية ويأس من الحصول على وظيفة، فسافر إلى الكويت ليعمل هناك سائقاً. يومها أخذ معه رحيق حياتها، وكلَّ الأسرار، وترك لها وعوداً تعلقتْ بها حتى عرفت بعد انتهاء المطاف، الحقيقة الحارقة: فى كلِّ وعدٍ، وعيدٌ بالحرمان منه.

من بعد سفره لم يتّصل بها قط، وقد احتاجت سنواتٍ لكى تشكَّ فى

الأمر وتتشكّك فى قيمة الوعود، وتُدرك أن الذى لا يتّصل لن يصل.. يوم وداعها له على مدخل صالة السفر، تحيّرتْ حين غاب حبيبها عن نظرها وانحشر بين الجموع الهاربة من البلاد. فظلت ساعةً تبكيه ثم أدركتْ أنها لن تفعل من بعده شيئاً، سوى انتظار عودته. ويومها لمعت برأسها فكرةُ العمل فى صالة الوصول، فبقيتْ منذ الصبح التالى لسفره تعمل فى الكافيتريا، وتتصفّح وجوه القادمين من الكويت. وفى غير أوقات العمل كانت تلتقط أخبار الذين هاجروا وهجروا الأحبّة، وتتصيَّد شوارد الأخبار الشحيحة عن حال المغتربين فى الكويت.. ومضت بها الأيامُ حتى بلغتها الأنباءُ المخبرة عن عودة حبيبها السابق قبل شهرين، دون أن تراه يوم الوصول، وزواجه الشهر الماضى من بنتٍ فلاحةٍ قريبةٍ له. كانت الأخبار المؤكَّدة، فاندكّت حصونها، وقررتْ من فورها ترك عملها بصالة الوصول لأن هذا العمل العليل كان قد فَقَدَ معناه. وأىُّ معنىً ذاك الذى سيبقى عندها، بعدما تيقّنتْ من عُمق مأساتها.. لكن إيمان كانت قويةً بما يكفى لإعلانها الاستسلام أمام نفسها، ولاتخاذها قرار الاستفادة مما بقى فيها مسحات الحسن المثير لرغبات الرجال، الجالب لبعض المال.. فهى أخيراً قد تيقَّنت من أن حبيبها الموهوم، كان يمرِّر بها سابقاً أوقات المرار، أثناء هجرته فى وطنه. فلما هاجر من هجرته، لم يتصل بها، لأنه لم يكن ينوى الرجوع من هجرةٍ أخرى إلى الهجرة الأولى.

مولدُ قصيدة

ابتهج الشاعرُ حين ظنَّ أن قصيدته الجديدة قد اختمرت تماماً فى ذهنه، أثناء نومه، وعليه الآن إخراجها على الورق بالخروج مبكراً من مسكنه المنزوى بأطراف الحىِّ الشعبى العريق، متعرِّج الحارات، ثم يأخذ طريقه اليومىّ المعتاد إلى المقهى الحقير المطل على الميدان الواسع، العامر، المتقاطعة عنده كلُّ الطرق المؤدية إلى اللاشىء .. "اللاشىء" هو عنوانُ القصيدة التى سوف يكتبها ولن يعوقه عن استكمالها أىُّ عائق، فسوف يجلس فى موضعه المعتاد بالمقهى فى الصباح، ويسوِّد بالأسطر الشعرية الأوراق النقية المطوية بعناية فى جيب قميصه الواسع، الممسوكة بغطاء قلمه المعوجِّ، المشرف من طول الاستعمال على نفاد حبره الجاف.

الحركةُ فى الصباح منعشة.. على كرسيه المعتاد جلس شاعرُ الحيرة مستبشراً بفيضان مفردات ساحرةِ الوقع، سوف تتدفَّق بعدما اقتنص بالأمس مطلع القصيدة، واجتمعتْ لديه هذا الصباح المستريح شروطُ الإبداع جميعها: سجائُره، القلمُ والأوراق. هدوءُ المقهى قبل ازدحامه بالرواد، نظافةُ الرصيف متكسِّرِ الحواف، خيوطُ السخونة المتصاعدة من كوب الشاى المطيَّب بحبّات القرنفل التى يحبُّ رائحتها، الانهزامُ أمام العالم الفعلى والانزواء فى دهاليز الذات.. وقد زاد من مُستدعيات الإبداع عنده، أنه لم يَرَ حوله أعيناً فضوليةً ترنو إليه بالنظرات المشوّشة، وليس هناك إلا عين عامل المقهى المنهمك فى تجهيز لوازم اليوم الجديد، ترمقه من بعيد بحياد كاميرا متحركة.

اطمأن الشاعرُ لهدأة الكون من حوله وبدأ يحفر بالقلم فى الورق،

واثقاً كأغلب الشعراء من قدرته العالية المسيطرة على المفردات، المتوهّمة إعادة بناء العالم بقصيدة.. ولما فاضت عليه سماواته. انساب من قلمه مطلعُ القصيدة والسطرُ الثانى منها، والثالثُ. فكتب:

للزمان أحوالٌ تَحُولُ

وحيرتى فى ظلمتى. تجوسُ فىَّ

تجتاحُنى .. بل تجرفنى

***

ما هذه البداية.. وماذا بعد الاجتياح والانجراف؟ سأل الشاعرُ نفسه عمّا يجب أن يستكمل به كلمات القصيدة. فشطّ عنه الفكرُ وشرد. ظلَّ يُفتّش عن السبب فى جولان خواطره بعيداً عن قصيدته ومخاض ولادتها، فازداد شروده، حتى انتبه إلى أن قطةً جائعةً تدور حول قائم كرسيّه فتصرفه عن مراده وتشوّش عليه خواطره. طردها عنه بانتفاضةٍ مفاجئة من قدمه، فانصرفت عنه المتطفلةُ وتركته يعود إلى ذاته، ليجد السؤالٍ نفسه جالساً فى رأسِه ينتظر إجابة: ماذا بعد الاجتياح والانجراف؟

نصب الشاعرُ قائم ظهره، وملأ صدره بالهواء الآخذ فى الاختلاط بغبار العابرين وعادم سياراتهم. فاستعاد رويداً قُدراته الشعرية وانكبَّ فجأةً على أوراقه ليكتب. لكنه غدا غيرَ واثقٍ من قدرته على إتمام القصيدة. وصار مُرجّحاً إنه سيشطب ما سوف يكتبه. هذه معاناة المخاض المعتادة. فلا بأس. واسى نفسه بأنه لابد من مداومة الشطب

والشطف والحذف، فتلك طبيعةُ الإبداع وخصوصيةُ اللغة الشعرية الرهيفة، المنفلتة دوماً مثل خيوط دخان سجائره.. بعد حين قال فى نفسه إنه سيستمع إلى صوت قلبه، وسوف يدوِّن ما يتنزَّل عليه من سماوات الإبداع، ولن يشكّ فى مقدرته على الإمساك بزمام القصيدة، ولن يتشوَّش كالأشياء المحيطة به.

لا شىء بعد الاجتياح والانجراف، إلا اندفاق القصيدة. وها هى روحة تحلِّق منذ الأمس فى سماء الكلمات وتمسُّ سقفها، فتأتيه بالمعانى من آفاقها البعيدة، وعليه الآن صياغة رؤاه العميقة شعراً.. رويداً، راحت قصيدته تتسلّل من نفسه إلى أوراقه، حتى استعلنت فجأةً وأعلنت عن بدء ميلادها، فكتب منها هذه الأسطر مُعدّلاً كان قد كتبه من قبل، فصارت:

للزمان أحوالٌ تَحُولُ،
فتحيِّرُنى،
وظُلمتى تجوسُ فىَّ. وتَجُولُ
فتجرفنى إلى محطِّ اللاعودة،
واللا وصول.

***

ما الذى أريد قوله بعد ذلك؟ سأل الشاعرُ ذاته، فأخذته خواطره إلى بعيد وعَدَتْ عليه فترةُ تردُّد، وانهمك فى خطٍّ وشطبٍ، فتأرجحتْ ثقتُه وبدَّدتْ ما كان يعتقده من اقترابٍ مولد قصيدته الجديدة.. أشعاره

السابقة كان يكتبها كعصفور يصخب فى الصباح، أو مثل ثكلى تسحُّ دموعها شعراً. ولم يتمهّل يوماً، أثناء الكتابة، فيسأل نفسه عن آخرة المسار الذى تسوقه القصيدة إليه. بعد حينٍ دفعه الشكُّ والتشوُّشُ إلى إعادة صياغة سؤاله، فجعله: ما الذى تريدُ قوله، ويريد الناسُ أن يسمعوه؟

طمأن نفسه بأن عنده كثيراً من المعانى التى تستحق أن يُسمعها للناس عبر أبيات قصيدته، منها الحيرةُ من تحوّلات الأيام، والحسرةُ من عبث المسعى، واليأسُ المريح من تعذيب الأمل.. لا، لن أحكى شيئاً من ذلك، والناس لا تحب الحديث عن المحيِّرات والمُحسِّرات لأنها محبطات، وهناك من الموضوعات ما يرتاح الناسُ لسماعه كالأمل فى العثور على محبوبةٍ مخلصة، أو نسيان محبوبةٍ سابقةٍ صارت للغير مخطوبة، أو السخريةُ غير المريرة من سُخف الأيام المعطوبة. ابتهج فجأةً، فقد صار لديه ثلاث كلمات مسجوعة سيجعلها أطراف سطور قصيدته "محبوبة، مخطوبة، معطوبة" وعليه إعادة توزيع الكلمات كى يستخرج من انتظامها المعنى، كأن يجعلها على الترتيب التالى: المحبوبة المعطوبة مخطوبة! أو يجعل عبارته الشعرية بعد حشو الثنايا: هذه المعطوبة كانت لى محبوبة، ثم صارت لغيرى مخطوبة..

ما هذا الكلام؟ هذا ليس شعراً، ولن يحبه الناس. وحتى إن وافقت على نشره المجلةُ الأدبية الوحيدة بالبلاد، فلن يُعجب به أحدٌ. قال فى سرّه: لن أهتمّ برضا الآخرين عن قصيدتى، بل سأهتمّ بها لتكون مرضيةً لى، ولسوف يظل المعنى العميق للقصيدة فى قلب شاعرها.

ومن الطبيعى والمعروف، أن المعنى التام فى أى أبياتٍ شعرية لا يعرفه إلا مُبدعها.. ما هذا الخلطُ والتخليط؟

ساعةٌ أخرى عبرت على الشاعر ثقيلة الوطء، بعدها تزايدت من حوله الأصواتُ الصاخبة. فأغمض عينيه ليستعيد صورة محبوبته. صورتها الأولى التى كانت، قبل أن يلحق بقلبها العطب. سها حيناً عن حاله، ثم استفاق وكتب القصيدة مجدداً من السطر الأول، بعدما عدَّل المطلع:

للأحبَّة أحوالٌ تَحُولُ،
هُم لا خلاقَ لهم
لكن ذكراهم تجوسُ فى ظلمتى الدامسة،
وتصولُ
تُحرّك حيرتى فى محبوبتى، فتجتاحُنى
تجذبنى إلى أقاصى المدى،
حيث لا عودة، ولا وصول
ولا مأمول،
إلا استعادة غفلتى،
وسعادتى بُطهر الحبيبة الميَّالة لأحضان المتاح أمامها من الرجال..

***

توقف فى رأسه جريانُ نهر الكلام لما انتبه إلى أن رمزه بالمحبوبة ليعنى بها الوطن، هو حيلة شعرية مستهلكة لطالما ابتذلها من قبله

الشعراءُ. وعليه أن يسلك من بعدهم مسرباً آخر. نعم، الأليق بالقصيدة أن تفاجئ سامعها فيصير مطلعها. مثلاً: "لهذى البلاد أحوال تحول. ولا ضابط لها".. ويمكن من بعد المطلع أن يناور بالمفردات فيشتكى صروف الزمان فى وطنٍ يُنهك أرواح محبيه. مثلما تعتصر المحبوبة الخليعة قلوب عشاقها.

لا. لن أعود بالشعر إلى المعانى المستهلكة أو الكلمات. همس لنفسه بذلك وهو يعضُّ بشفتيه مبسم سيجارته، التى صارت كأنها إصبع ديناميت سينفجر من فوره بالإبداع الشعري .. نعم. الإبداعُ الشعرى هو انفجارُ المعنى عبر سطور القصيدة. وفى الانفجار لا يمكن حدوثُ تشابهٍ أو وقوعُ التكرار. فكلُّ قصيدةٍ تتولَّى شقَّ مجراها وما شاعرها إلا الموهوم الملعوب به، المستعمل لتتم به القصيدة .. الشِّعرُ يمكرُ بالشعراء، نعم. ويلعب هواهُ بهم.

عند دخول المساء وازدحام المقهى بالغافلين، انتبه الشاعر إلى فداحة حاله وأحوال المحيطين، فمال برأسه إلى الحائط لحظةً ثم اعتدل وخلُص من الصخب بالغرق فى الفكرة التى اكتملت فى ذهنه، أو كادت. وكان فحواها: الشعرُ خداعٌ للشاعر والسامع، معاً. وما الوطُن إلا نزوعٌ شعرىٌّ يجعل المحبوبة كأنها وطن. وحين يختلط الوهمُ الذى فى القصيدة بالوهم المستريح فى نفوسنا، والمستريحة نفوسنا إليه، يتمُّ المكرُ الشعرى ويمتزج الولاء بالإخلاص. فنظنُّ أن الإخلاص يكون للوطن، والولاءُ حقٌّ للمحبوبة مهما كانت منحرفة أو مخطوبة. ونغفلُ آنذاك مع الغافلين. ونسير كالسائمة الهائمة دوماً بحالها المتغافل، حتى

لو سيقت إلى الذبح ولمحت من بعيد سكيناً يلمعُ.. وهذه القصيدة لن تكتمل أبداً، وشكلها هذا الذى نظنُّه الأخير ليس أخيراً ولا آخراً، ما دام الوهم قد اختلط بالوهم تحت وطأة المكر الشعرى.

***

بعد انتصافِ الليل وسكونِ ضوضاء النهار وفُقدانِ ضوئه، جاس الشاعرُ بين حوائط الحارات المحيطة ببيته، وسار بينها كعنكبوت وحيد يعود إلى بيته المهترئة أنحاؤه. وحيداً سار متكسِّراً ومستسلماً تماماً لفكرته المؤرجحة لرأسه، المطيحة بروحه فى أفق الإفاقة من غير أن تمنحه ترفَ الاندهاشِ من أى شئ.. وما الذى عساهُ أن يكون مُدهشاً بعد اكتشاف عمومية اللاشئ، وإحاطته بنا!! ما المدهشُ فى إدراكنا الاختلاف بين المحبوبة النائمة برأسها على مخدّة البحيرة الجنوبية. المحبوبة الممتدة بقوامها الأخضر المستلقى وسط اصفرار الصحارى، المحبوبة التى تريح ساقيها المتباعدتين وتمسُّ بإصبع قدميها البحر، المحبوبة التى كانت من مبتدأ الأمر مخطوبة، وكنّا معها من المبتدأ إلى المنتهى، ممكورٌ بنا.. كانت المحبوبة التى احترفت خداعنا، تخايلنا طيلة الوقت بنظرات موحية باللاشئ الذى كنا نظنه شيئاً، وتعدُنا بقصيدة لن تولد أبداً مهما اجتمعت عندنا دواعى الإبداع الشعرى. فالشعرُ أمكرُ منّا، وبإيهامنا بأننا نلعبُ به وبها، هو الأقدرُ على اللعب بنا.. وهى القديرة.

لُعبة ليل

توهَّمتُ أنها هديةٌ هبطت إلىَّ من السماء، لأن السماء أرحمُ من معاقبتى على ذنب لم أفعله، ولا أعلمه، ولن تتركنى وحدى لأضيع بعدما توالت علىَّ الويلاتُ ولحقت بى الخيباتُ متتابعةً، طيلة الأشهر الستة الماضية التى رأيتُ فيها المرار متجسِّداً.

فى مبتدأ الأشهر الماضية، الماحقة، مات أبى بعد سنةٍ مسنونةِ الحواف قضاها فى معالجات فادحة التكلفة، عديمة النفع والبرء. وبعد وفاته بشهرين، أغلقتُ مضطراً مكتبى الهندسى الذى التهم إنشاؤه حصيلةَ كدحى المتواصل لسبع سنواتٍ فى البلدة الخليجية الخالية، وبسبب كساد الأحوال سرَّحتُ موظفيه الخمسة. وما بين الوفاة والإغلاق تفاقمت مع زوجتى "سلمى" المشكلات حتى انتهت، بل خمدت، فى بداية الشهر الماضى عندما أهانتنى أمام أسرتى وصرختْ فى قائلةً إننى شخصٌ مهزوزٌ وفاشل، وإنها تريد الطلاق ولا تريد منى أىَّ نفقة لعلمها بإفلاسى، ولسوف يتولى أبوها الإنفاق على طفلتنا "بوسى" لحينِ عثورى على وظيفة أو رجوعى للعمل فى الخليج.. فى منتصف الشهر الماضى جلسنا أمام "المأذون" يحوطنا الشاهدان والأمُّ المواسية، ولما سألها الشيخُ المعمَّم عن وقوع تطليقاتٍ سابقةٍ أجابته بأننى طلّقتها من قبل أربع مرات. كانت تكذب. فهى تطليقاتٌ شفاهية انطلقتْ من لسانى أثناء غضب عارم، بسببها، وعند الغضب ينغلق العقل. وقد سمعت من عالم دينٍ، أنه لا يًصح الطلاقُ فى إغلاق.

قال لها المأذون بصبرٍ نافد: يعنى دى الطلقة رقم كام؟ فردَّت عليه من فورها: الثالثة.. منذ وقع طلاقنا البائن بينونةً كبرى، وأنا متحصِّنٌ

بجدران منزلى كأننى أفرُّ مما لا مفرَّ منه، فلم أخرج من هذا الباب طيلة الشهر إلا مرتين مؤلمتين لرؤية ابنتى التى بلغت بالكاد من عمرها عامين، ومرةً أشدُّ مرةً أشدَّ مرارةً وإيلاماً بعتُ فيها قطعة الأرض الموروثة عن أبى، لتسديد ديونى.

***

ظهر اليوم، هاتفنى سَمِيِّى "حسن" زميلُ دراستى القديم، الذى صار يعمل فى استيراد تروس الماكينات الكبيرة. تشاكينا كالمعتاد من الكساد ومن تأرجُّح الأمور، ثم انتهينا كالعادة إلى تأكيد أن الفرج قريب لأن دوام الحال من المحال. مع أن السيئ قد يعقبه الأسوأ. قبل إنهاء المكالمة سألنى عما أنوى اليوم القيام به، فأجبته بانكسارٍ قائلاً بلسان المسكنة "لا شيء" فقال إنه مدعو إلى حفلٍ صغيرٍ سيُقام الليلة على باخرة نيلية، فيه عشاءٌ معه غناءٌ على العود، تعقبه الفقرة الشرقية الأهم التى تقدِّمها الراقصة الحسناء المسماة "زوبعة".

لم أكن أعرف هذه "الزوبعة" ولا غيرها من زوابع النساء المثيرات، ولم يكن عندى حماسٌ لتلبية الدعوة أو رفضها؛ فلما ألحَّ علىَّ وافقته وفى الساعة الثامنة مَرَّ بسيارته وأخذنى معه.. وجدتُ عدد الحاضرين يزيد عما توقعتُ، وأكثرهم متأنقون ومتحرِّرات، وكلهم مبتهجون كأن حياتنا تخلو من أية منغصِّات.

بعد ساعتين مللتُ ازدحام المكان واصطخاب الأصوات المتداخلة، فقررتُ الرحيل عن هذا الجمع لأحتمى بوحدتى المعتادة. لكنها جاءت،

فبقيتُ. كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة لحظة دخلتْ علينا باسمةً، فى ثوبها الأسود الشفَّاف الكاشف عن استداراتها الساحرة، وعلى شفتيها انفراجةٌ مستهترةٌ أخَّاذةٌ يُشرق بها وجهُها الأسمرُ الممتلئُ، المنسدلةُ حوله خصلاتُ شعرها المنفلت كالضفائر المفكوكة، الموحية بالانطلاق.

حين حيَّتِ الحاضرين وجلستْ قُبالتى، اختُطفتُ، وحين لمحتُ لحظةَ جلوسها نعومةَ وامتلاءَ ساقيها، ارتجفتُ، وشغفتُ حين استراحت عيناى عند انضمامة التُّفاحتين اللتين يحوطهما بغير إحكام جيبُ صدرها المكشوف..ملتُ إلى أُذن "حسن" وسألته عنها فابتسم وهمس بأن اسمها "داليا الإدفاوى" وبأنها تعمل سكرتيرة فى شركة بترول أجنبية، ومطلقة، وتحب الحياة.. ثم هزَّ رأسه وأضاف: يعنى، داليا دى حاجة دلع خالص.

***

توهمتُ أنها هدية هبطتْ إلىَّ من السماء، وتأكَّد الوهمُ عندى عندما جاذبتها الحديث فجاوبتنى برفق، ولما استأذنتها مع نهاية السهرة فى الاتصال بها تليفونياً، لمعت عيناها ولم تعترض. عند افتراقنا فى آخر السهرة انقدحت بين عينينا نظرةٌ من هذا النوع، نادر الوقوع، الذى يفجِّر البراكين الكامنة ويلهب القلب.

كان عسيراً علىَّ إزاحة صورتها عن خاطرى، خلال "توصيلة" العودة التى لم يكفّ "حسن" أثنائها عن الشكاية من سوء حظِّه، وعن حكاية

التفاصيل المملة لعملية "النصب" التجارى التى تعرَّض لها مؤخراً فأودتْ بنصف ما كان يملك من السيولة المالية. كنتُ أواسيه بلسانى، وبأفكارى أهيم فى حُسن "داليا" وسحرها الجارف.

أمضيتُ ليلتى هانئاً بجولان خيالى فى المدى الأبعد. وسعيداً باستعادة حضور ودلال "داليا" ورِقَّتها الآسرة، كلما أشارتْ أو التفتتْ بعينيها الفياضتين بفوران الأنوثة من أين أتت بتلك الالتفاتة الفاتنة. حتى للأتقياء؟ ومن أين لها تلك الليونة البادية من نبرات صوتها. ومن حركة أصابعها السُّكرى وهى تدخِّن بالتذاذ مثير؟ ومن أين لها كل هذه الفتنة الفواحة.. فى آخر الليل نمتُ ملامساً لها بخيالى.

فى الصباح التالى كلمتها وفى الصباحات الخمسة المتوالية، فكانت مكالماتُ الصباح قصيرات مرحات. مكالمات المساء كانت هى الأحنُّ والأهمسُ، والأكثرُ إفصاحاً عن الأحوال الحالية وعما مضى. داليا عَرَفتْ منى أننى طلَّقتُ بعد زواجٍ تعيس، لأن طليقتى كانت مفرطة الانفعالات، ونكدية. وأشفقتُ منْ إخبارها بأننى كنتُ أحب "سلمى" وبأن انفعالاتها المتوترة قبل طلاقنا، كانت بسبب خساراتى المتلاحقة وحيرتى عند اضطراب الأحوال.. وعَرَفتْ منى أننى أغلقتُ مكتبى منذ شهرين، بسبب الأزمات الكثيرة التى تمرُّ بها البلادُ، وأنظر حالياً فى "البدائل" المستقبلية قبل الإقدام على أىِّ مشروع جديد. وأشفقتُ من إخبارها بأننى فى حقيقة الحال مُحبطٌ، وبالأحرى منها. وما عدتُ اليومَ أميلُ لأىِّ بدائل.. وعَرَفتْ منى أننى أسكنُ فى "فيلا" تحوطها الحدائق، تقع أطراف الضاحية القاهرية الفخمة المسماة "منظر المدينة" ووصفت

لها تفاصيل المنـزل الذى أعيش فيه وحيداً. ولم أر داعياً لإخبارها بأن منزلى هذا مستأجرٌ.

وفى المقابل، عرفتُ من داليا خلال المكالمات التى استطالت مساءً، أنها أصلا من بلدةٍ ريفية لكنها أقامت خلال دراستها الجامعية، فى مأوى للطالبات يقع بأطراف القاهرة. وباحت لى بأنها رفضت العودة إلى بلدتها "الخانقة" بعد انتهائها من الدراسة، فتزوَّجت ولداً قاهرياً تافهاً لم يتم تعليمه، كان أبوه ميسور الحال نسبياً فاستطاع توفير شقة زوجية متواضعة الحال. وصرَّحت لى أنها لم تحب زوجها السابق، لكنها وقتها كانت تحتاجه جداً لأن رجوعها إلى بلدتها، كان بالنسبة لها انتحاراً مستحيلاً.. وعرفتُ منها أنها ظلّت متزوَّجة خمس سنوات، وهى مُطلقةٌ منذ خمسٍ، لكنها لم تذكر لى سبباً محدَّداً لطلاقها، واكتفت بإشارة إلى أن زوجها كان بحسب تعبيرها: عَيِّل.

مع امتداد المكالمات تدلّت داليا بهمسها، وتدانتْ. فأدركتْ من ثنايا كلامها أنها منطلقةٌ. تحب الحياة وتهوى السهر فى جُحور السمر المسائى. ولا بأس عندها، بل هى تحبُّ، احتساء "الفودكا" صرفةً أو ممزوجةً بعصير البرتقال، ولا مانع عندها من تدخين سجائر "الحشيش" كلما وجدتها متوفرةً، وتميلُ إلى الرقص فى "الديسكو" حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل.

دعوتها لزيارتى فاستجابت، وبعد ساعة من لقائنا أدفأتْ سريرى. بل ألهبته بفنونٍ فراشية لم أعرفها من قبلُ مع الفتاة التى أحببتها أثناء الدراسة، أو مع "سلمى" التى تزوَّجتها وأنجبتُ منها طفلتى الوحيدة.

البعيدة، التى كانت تنام فى حضنى كل ليلة فصرتُ اليوم أراها فى مواعيد متباعدة.. فى خاتمة لقائنا الأول، الأجمل، اتفقنا على قضاء ثلاثة أيام فى قريةٍ سياحيةٍ بالغردقة، يُديرها حسبما قالت "داليا" أحدُ معارفها القدامى. وقد تحمَّستُ للفكرة من فوري، وملأنى ساعتها الإحساسُ بأن الحياة ابتسمت لى بعدما طال عبوسها فى وجهى، وتيقَّنتُ تماماً من أن "داليا" هديةٌ هبطت إلىَّ من السماء.

***

الأسبوع الماضى أمضينا بالغردقة الأيام الثلاثة، المبهرة، المليئة بالمتع الفردوسية التى بلا حدود.. فى يومنا الأول ارتدت داليا "شورت" يلهب الخيال، وفى اليوم الثانى سترت نصف جسمها بمايوه من قطعةٍ واحدة لونه أبيض برَّاق يسرُّ الناظرين، وفى اليوم الأخير ارتدت "مايوهاً" من قطعتين لا يكاد يستر شيئاً.. فى اليوم الأول رأيتها تبدأ صباحها المتأخّر باحتساء قَدْرٍ كبير من "القهوة" القوية السوداء، غير الممزوجة بحليبٍ أو سُكَّر. وفى اليوم الثانى رأيتها تلف الحشيش فى عشر سجائر، وصفتها وهى تبتسم بأنها "التموين اليومى". وفى اليوم الأخير نفدت منها زجاجة "الفودكا" التى جاءت بها فى شنطة سفرها، فتركتنى عقب العشاء لمجالسة صديقها المدير، الذى لم أره، وعادت من عنده بعد ساعتين بزجاجةٍ جديدة احتست أمامى نصف ما فيها، احتفالاً بآخر ليلةٍ لنا فى الجنة.. فى اليوم الأول لسعتنى بسياط القبلات اللاهبة ثم أتاحت أنحائها، كلها، مرحبةً بالاجتياح الأهوج.

وفى اليوم الثانى خمشتْ بأطراف أظافرها حناياى، ورفعتنى بطرف لسانها الجوّال فىَّ، فوق كل الآفاق. وفى اليوم الثالث توهَّجنا وتجاوزنا الحدود التى كنتُ أعرفها، فأيقنتُ بأنها أشهى امرأةٍ تمشى على قدمين لا تمتنع عن رفعهما عالياً فى أى وقت.

صباح أمس، سألتنى فى طريق رجوعنا من "الغردقة" عمّا أفكر فيه وأشرد بخواطرى، فقلت إننى أشتاق إليها وهى جالسةً إلى جوارى، وإنها صارت عندى أغلى ما فى الوجود. ولم أجد السياق ساعتها مناسباً لإبداء رغبتى فى الاقتران بها لتكون لى طيلة العمر، أو كنتُ بالأحرى مضطرباً، فألمحتُ إلى ذلك من بعيد. عند وصولنا ووداعنا المؤقّت، ظهراً، طلبت منى بدلالٍ يصعبُ ردّه أن أذهب معها فى المساء، إلى صالة "الديسكو" الصاخبةِ بالفندق الشهير. لأنها تريد أن ترقص الليلة كثيراً، بعد هدأة هذه الأيام الثلاثة الممتعة. عبثاً حاولتُ تأجيل ذهابها إلى مُشتهاها، بحُجَّة أننا الليلةَ مجهدان من رحلة العودة، لكنها ظلَّتْ على إصرارها. لما استطال الكلام كادت تحتدُّ علىّ متذمّرةً، ثم أظهرت شيئاً من الدلال الممزوج بالغضب وهى تخبرنى بأنها تحتاج جداً أن ترقص، والليلة تُقام مسابقة الرقص الأسبوعية التى لا يصحّ أن تفوّتها، والأيامُ القادمة سيكون المكان هناك خالياً ومُملاً.. وختمت كلامها بقولها: شوف يا حسن، فرصة الانبساط موش لازم تتفوّت، إحنا لسه شباب ولازم نستمتع بكل لحظة.

بعدما صعدت إلى شقتها الصغيرة المستأجرة بميدان الدقى، رأيتُ

الطريق إلى منزلى بعيداً فى زحام الظهيرة، فمررتُ على صديقى حسن فى مكتبه القريب من ميدان الجيزة. ذهبتُ إليه من دون اتصالٍ يُخبره بقدومى، كى يبدو مرورى عليه كأنه عابرٌ، وكان من حُسن حظى أنى أدركته هناك وهو يتهيَّأ لمغادرة المكتب .. سألته إن كان بالإمكان أن نجلس قليلاً لأستشيره فى أمر، فقال بحسم قاطع: طبعاً.

أخبرته بتعلُّقى الجارف بداليا ونيَّتى الزواج منها، لكننى قلقٌ من انطلاقها الدائم وعندى بعض الملاحظات على سلوكها، وعلى طريقة مهاتفتها المتمايعة مع رئيس القسم الذى تعمل فيه، ولا أفهم سرَّ علاقتها بمدير القرية السياحية التى أمضينا فيها الأيام الثلاثة الماضية. لم أتم كلامى، فقد انفجر فىَّ "حسن" بعدما أغلق باب الغرفة كيلا تسمعنا سكرتيرته النحيلة الجالسة بالغرفة المجاورة، وقال مُغتاظاً: جواز إيه يا باشمهندس، صلّى على النبى كده، داليا دى حاجة "دلفيرى" آخرها إنك تقعد معاها كام يوم وخلاص، مُش تقول يا جواز..

- ليه يا حسن، دى عاجبانى أوى.

- وماله يا بو على، تعجبك ماشى. مفيش مانع يا صاحبى. خُد منها اللى انت عاوزه، وبس. ليه بقى الجواز والهمّ اللى ما يتلمّ، إنت يعنى ناقص مشاكل.

- وليه المشاكل، قصدك يعنى علشان ملاحظاتى على سلوكها.

- يابنى ملاحظات إيه. ما أنا عارفها كويس من زمان، وغيرى كمان عارفها، دى كل ليلة فى علبة من علب الليل، وكل يومين مع واحد شكل. إنت بس ماعندكش خبرة، وكويس إنى لحقتك قبل ما تتورَّط معاها فى

حاجة. اسمع يا حسن، إنت أخويا ولازم أقول لك الحقيقة..

- طيب ليه عرَّفتنى عليها من الأول؟

- يا أخى علشان تتبسط كام يوم. لقيتك زعلان من كُتر المشاكل اللى عندك اليومين دول، قلت يمكن الحُرمة دى تخفّف عنك شوية.

- بس أنا حبتها فعلاً.

- يا عم، حب إيه بس. بقولك داليا دى على المشاع، وكله عندها عادى. وبعدين "داليا" دى فيه منها كتير آلاف مؤلّفة، روح كده أى "ديسكو" هتلاقى هناك نسوان كتير زىّ داليا، وأحلى منها كمان بكتير، وكلهم بيعملوا الحاجات اللى عجبتك فيها.

- لا يا حسن، داليا مُش زىّ أى واحدة تانية داليا مختلفة.

- يا سلام! مختلفة إزّاى يعنى. يابنى بقولك أنا عارفها كويس، ومشيت شوية معاها السنة اللى فاتت، وأيامها رُحت معاها الفردقة وقعدنا هناك كام يوم حلوين، وغيرى كمان راح معاها المشوار ده. زى ما انتَ رُحت بالظبط. وعلى فكرة بأه، الراجل المدير ده اللى فى الفردقة مدمن، اسمه إبراهيم الكتعة، هىَّ بتقول إنه كان مجوِّزها عرفى، بس ده يعنى أى كلام. هىَّ تعرفه وخلاص وبتجيب له بنات.. اسمع يا باشمهندس، أنا عايزك تعقلْ وتشوف مصلحتك. اتبسط معاها كده كام يوم، وخلاص، وبعدين داليا دى ماشية بنظام كله ماشى، ودايما تقول إنها فى حُكم اللحظة اللى هىَّ فيها. شوف، لو انت عايز تعمل علشانها حاجة، هات لها هدايا حلوة واعزمها كتير، وخلاص. عادى يعنى. وبعدين إوعى تروح معاها مكان الدعارة ده، ده مُش مكانك إنت،

خليك بعيد عن الفيلم ده أحسن لك، انت مُش ناقص بهدلة.. لو تحب، تعالى دلوقتى نعدّى على "حمادة قُرقُر" وهاتشوف على تليفونه داليا بتاعتك دى، وهىّ بترقص مع بنات تانية زيها كده، وهمَّ عريانين ملط.

***

ذهبنا إلى صديقنا الداعر "حمادة" ورأيتُ، وعرفتُ منه عن "داليا" مزيداً من الأمور الفاضحة.. عند منتصف الليل، تركت "حسن" و "حمادة" وعدتُ إلى حِصنى المنزلىّ البعيد، متكسِّرةً أركانى مع تساقُط الأحلام المهيضة، وقبعتُ فى الصالة وحدى وأطفأتُ الأنوار. لم أتصل بداليا وهى لم تتصل، فأدركتُ أننا افترقنا بعد كل ما كان. ما كان شىء. وها هى ليلتى الطويلة قد أشرف فجرُها، ولا بد أن داليا الآن انتهت من فجورها الأول، والتقطها أحد الحاضرين فى المرقص أو التقطته هى، لتستكمل معه الفُجور التالى.

***

توهَّمتُ فى البداية أنها هديةٌ هبطتْ إلىَّ من السماء، وكاد ظنى يتأكَّد فيصير يقيناً، ثم أفقتُ على أنها مجرد لُعبة ليلٍ رخيصةٍ ولجتْ بالصدفة إلى عالمى العليل، من عُلب الليل.. وها هى قد تبخرَّت، فصارت دُخاناً أزرق كهذا الذى كانت تنفثه من سجائرها المحشوَّة.

مع أول ضوء للنهار سألتُ نفسى: لماذا خلق الله المتشوِّهات من أمثال هذه "الدالية" التى تتدلَّى وتتدنى دوماً بإفراط، وبغير حساب؟ هل جعلها الله هكذا كى تتميَّز النساءُ عن النساء؟ وهل تتميَّز النساءُ

عن النساء .. جلستُ مذهولاً حتى أغرقنى النوم، ظهراً، ولم أَجِدْ جواباً على أى سؤال.


مُخَاتَلَةٌ

حوائطُ البيوت تحوى ما لا حصر له من أسرار، لا كاشف لها إلا الإسرار.. مثلما يفعل كلَّ يومين، تأنق "سمير" فى ملبسه عقب صلاة المغرب، وبلا اكتراث قال لزوجته العُرفية التى اختارت لنفسها اسم "ديانا" إنه سيقضى كالمعتاد وقتاً مع أصحابه، عند أحد أصحابه، وقد يتأخَّر. خرج مسرعاً وأغلق بهدوء باب البيت من دون أن ينتظر منها الردَّ، كيلا يشجِّعها على أىِّ طلب أو يترك لها الفرصة لأىِّ قول.

***

ديانا، هو الاسم الذى اختارته "دُنيا" لنفسها، لأنه الأنسب لها، منذ سنوات بعيدة حافلة بلغت الآن قرابة العشرين عاماً، وبه تخلَّصت من اسمها الأول الذى لم تكن تحتمل استماعه، لاسيما بعدما تُوفيت والدتها فجأة، بعد شهرين من التحاقها بالجامعة.. فى الصيف الذى عرفت فيه "دنيا" أنها سوف تلتحق بكلية التجارة، عرضتْ عليها جارتها المرحة اللعوب "بسمة" عملاً فى مركز التجميل سىء السمعة، القريب من ميدان ابن سندر. أيامها تخوَّفت أمها قليلاً من هذا العرض المغرى، مع أنها لم تكن تعرف شيئاً عن طبيعة العمل والمكان. ثم وافقت الأمُّ تحت وطأة الإلحاح، فكان المنعطف الذى انتقلت خلاله "دُنيا" بسرعة، من فتاة تعيش فى هامش القاهرة على هامش الحياة، إلى فتاة فاتنة تفهم كيف يمكن للمرأة أن تكون جميلةً وشهيةً، وتعرف كيف تستميل الذكور بإبراز الأجمل منها، وبدحرجة العينين إذا حادثت الأثرياء من الرجال، وبانفراجة الشفتين عند الاستماع إليهم، وباستعمال ضحكة

ساحرة عند احتياجها لاجتذابهم، وبترخيم نبرة الصوت كلما لزم الأمر.. وقد اقتضى إتقانها ذلك، فترة.

قبل التحاقها بالسنة الجامعية الأولى، قررتْ تغيير اسمها القديم لأنها رأته أسخف الأسماء، أو هو بحسب همسها لنفسها: اسم بلدى أوى.. صاحبتها بسمة كانت تواسيها بأن اسمها فيه بُشرى بالزواج ودخول الدنيا، لكنها لم تؤمن بتلك النبوءات البائسة. وكانت تعتقد أن أمها المسكينة، لأنها من بسطاء الناس الذين نزحوا من قلب الريف إلى أطراف العاصمة، اختارت لها هذا الاسم الفلاَّحى "دُنيا" الدال على فقدانها مباهج الدنيا، ولولا ذلك لكانت أمها قد ألصقتها باسم يليق بحياتها القاهرية القادمة.. مساكين أهل الريف الملتحقون بالمدنً، فهم يريدون تأكيد هويتهم بأسماء أطفالهم، وبما يطبخون.

فى هاتيك الأيام كانت أخبار الأميرة الأوروبية "ديانا" وصورها، تملأ الأعين والأسماع وأحلام البنات. وفى يومها الجامعى الأول كانت "دُنيا" قد عقدت العزم على تغيير اسمها، فهى على أعتاب عالم جديد يحتاج اسماً جديداً، وكانت من قبل ذهابها لعالمها الجديد قد هامستْ نفسها فى جلسة مسائية بائسة، قائلةً ما معناه: سأقول لمن يسألنى، إن اسمى "ديانا" لكنه مكتوب فى شهادة ميلادى دُنيا، لأن موظف السجل المدنى لم يكن معتاداً على الاسم الذى اختاره أهلى لى، أو لعل الموظف كان جاهلاً فكتب الاسم من دون قصدٍ بطريقةٍ خاطئة. ولحظتها لم ينتبه أهلى للخطأ فى اسمى، لأنهم كانوا فرحين بمولدى ومُتعجلين للاحتفال بالمناسبة السعيدة. أنا أكبر أخواتى. المهم يعنى، ظل الاسم

فى الأوراق الرسمية "دُنيا" لكن اسمى الحقيقى ديانا.. أشرق وجهها بابتسامةٍ خبيثة، حين توصَّلت لهذه الأفكار الجيدة، فاستكملتْ حديثها الداخلى: لن أحكى ذلك لأى ولد بالجامعة أو بنت، إلا فى اللقاء الثانى أو الثالث. ليكون اسم "ديانا" قد استقر وسُمع من غيرى، قبل حكايتى لقصة الخطأ غير المقصود فى كتابة اسمى. بهذا تسير الأمور بسلاسةٍ، ويستقر مع الوقت اسمى "ديانا" لأنه الاسم الأنسب لى، والأجمل.

***

قبل انتظامها بالسنة الجامعية الثانية، كانت "ديانا" قد صارت بفعل عملها فى مركز التجميل جميلة، وبما تكسبه من نقودٍ أنيقةً، وبما تفكِّر فيه غيرَ متوافقةٍ مع زميلات دراستها ومع الزملاء، فاتخذت مع ابتداء العام الدراسى سبيلها إلى المقاهى الفاخرة، سرباً. لاسيما أنها عشقت "الشيشة" بنكهة التفاح الأخضر. وقبل انتظامها بالسنة الجامعية الثالثة، ملَّت حياتها المنزلية البائسة وبيتها الحقير الملتصق بحواف الناحية المسماة "المنَاَشى"، وقررت الانطلاق والإمعان فى استعمال سلاحها الوحيد، بإتقان، لتكون ناجحة. صاحبت المعيدين ومنحتهم شيئاً من دلالها، فنجحت فى نهاية العام الدراسى بتقدير "جيد" مع أنها بالكاد ذاكرتْ، وبالكاد منحتْ. وقبل انتظامها بالسنة الجامعية الأخيرة، كانت قد ألقت بعذريتها فى نهر الصخب القاهرى، فانطلقتْ وقد عرفت طريقها. وفى أسبوع الدراسة الأول واتتها فكرةٌ جامحةٌ لم تتردَّد فى تنفيذها، مفادها أن المعيدين "عيال" تافهون والأهمُّ منهم

الدكاترة، الذين بيدهم الحل والعقد، وعددهم هذا العام الدراسى سبعة .. وهو عددٌ غير كبير.

خلال ذاك العام الجامعى "النهائى" أقامت علاقات سرية وسريرية، متفاوتة العمق، مع ستة من الأساتذة فقط. لأن السابع صدَّها عنه لأنه كان مُعقّداً نفسياً، أو مشكوكٌ فى رجولته، أو يحبُّ زوجته، أو لديه مشكلة مع الجمال. هكذا اجتهدت ديانا لتبرير فشلها فى اصطياده، وهكذا نالت الشهادة النهائية بتقدير عام "جيد جداً". وكان أكثر عشاقها الدكاترة تعلُّقاً بها، وأوفرهم تفاهةً، يريدها أن تصير "معيدة" معه فى القسم الذى سيرأسه بعد عامين، لكن التقدير العام لم يكن يكفيها لتحقيق هذا المطلب، وكانت لديها خُطط أخرى.

فور تخرُّجها اكتملتْ خبرتها، وكان فنُّ التجميل قد حلَّق بمحاسنها الحسية إلى الغاية القصوى، وكانت نظرتها للحياة قد صارت أحدَّ وأوضح. فى جوف ليلةٍ انقطعت فيها الكهرباء قررت ترك البيت الريفى التعيس والسكن بقلبِ القاهرة، لتهرب من نظرات جيرانها، وقدَّرتْ أن هذا الأمر سوف يتم خلال شهور ذاك الصيف، إذا بذلت بعض الجهد. لكنها لم تستطع الانتقال من عالمها الأول إلا بعد عام كامل من حصولها على الوظيفة المريحة، بالحيل المريحة للرجال الأكبر سناً والأعلى مقاماً، وهم على كل حال، الأكثر نفوذاً وحفاظاً على الإناث اللواتى يتيسَّر لهم اقتنائهن. فما بالك بها، وأنوثتها فياضةٌ بلا جهدٍ منها وفنونها الفراشية لاحدود لها.

وعلى هذا النهج ترقَّتْ "الأستاذة ديانا" من سكرتيرة بشركة

بائسة، إلى سكرتيرة بشركة شهيرة، إلى سكرتيرة بشركة أجنبية، إلى سكرتيرة خاصة جداً للمدير العام وصاحبة له. وبهذا المسار ارتفعت اجتماعياً بين الذين يعرفونها، ولا يعرفونها، وطمحتْ إلى أحلامٍ أعلى وأكثر مناسبةً للحال الجديد.

"الهدايا مهمة، وزيادات المرتب، لكننى أحتاج أكثر من ذلك وأهم".. حدّثتْ نفسها وأسرَّت لنفسها النجوى وهى تبوح لقلبها بالأمانى وتُقدِّر القُدرات، ثم رتَّبت الأولويات: يجب تغيير اسمى من "ديانا" إلى ما هو أنسب للفترة القادمة، فيكون مثلاً "مدام دودو" ولابد من امتلاك سيارةٍ خاصةٍ لا بأس فى أن تكون بالبداية رخيصة أو ممكنة الشراء، ثم ترتفع فى الموديلات والأسعار، ولابد لى من مالٍ يُدَّخر فيحقِّق الشعور بالأمان.

ما كان للمطلب الأول أن يتم إلا بزيجةٍ رسمية، مهما كانت متواضعة، ومن هنا تزوَّجت الشاب الأسمر اليابس البائس، الذى يعمل فى استديو التصوير. وهو الذى التقط لها أيامها تلك الصور الفوتوغرافية، الساحرة لأعين الناظرين من الرجال والمثيرة لغيظ الناظرات من النساء، لاسيما الخليعات منهنَّ. كان هذا الولد الذى اختارته أصغر منها سناً بقليل، وأطول، وأطوع، فصارت خلال الفترة التى أمضياها متزوجينِ هى المستولية، نافذة المشيئة، سيدةُ الشقة الضيقة التى استأجرتها لهما بوسط القاهرة. استمر زواجهما الرسمى هذا عامين، رأت أنهما مدةٌ كافيةٌ لنقلها إلى المستوى المطلوب تحقيقه اجتماعياً، وتجعلها خليقةً باسمها المراد تعميمه: مدام دودو.

"لا زيجات رسمية بعد هذه، فلا يصح أن يقأل إننى تزوَّجت عدة مرات، والعرفى من الزواج يحقِّق المراد منه، ويُنسى بعد حين فلا يُحسب" . أسرَّت لنفسها بذلك وتدبَّرت الأمور المحيطة، وفى السنوات الثلاث التالية تزوَّجت عُرفياً عدة مرات، بسبب ظروف الرجال الذين أحبُّوها وأرادوا منها أكثر من العلاقات العابرة، وأرادت منهم كل ما يمكنها الحصول عليه. صار الذين يعرفونها يعرفون أنها لا تُقيم علاقات غير شرعية، مع أنها تُقيم، ولا ترتبط بأكثر من رجلٍ فى الفترة نفسها، مع أنها ترتبط. وأشاعت عن نفسها أنها لا تطلب من الحياة إلا العيش فى سلامٍ نفسى، مع أنها تطلب.

***

بعد عبورها عتبة الثلاثين من عمرها، شعرت "دودو" بأخطارٍ كثيرة تُحدق بها، أولها أن جمالها صار معتاداً لأن الإناث اللواتى حولها، عرفن الطريق إلى مراكز التجميل وأدركن الأسرار. كما أن وزنها ازداد بسبب شراهتها فى الأيام التى تسبق دورتها القمرية، فترهَّلت بعض الشىء حوافُّ بطنها، وما تحتها، وهذا خطير. وآخر الأخطار المنذرة بمزيدٍ من الأخطار، أن بعض الرجال الذين استهدفتهم لم يكترثوا كثيراً بالإشارات الموحية واللمحات الصيَّادة، لكثرة الصيادات بالإيحاءات أو لأنهم لا يريدون أن يبذلوا مما أعطاهم الله. وهذا محبطٌ. وما بين أول هذه الهواجس والأخطار، وآخرها، كان الحنين المكبوت للإنجاب يعصف بها وتنكره، وتسوق لصاحباتها الحجج: لا يجب أن نفكر فى

الأولادِ إلا إذا تيسَّرت لنا الظروف المناسبة لرعايتهم.. لن أجنى على طفلٍ أُنجبه وأرمى به فى مسالك هذا العالم المضطرب، كثير الفساد.. لا رغبة عندى فى مزيدٍ من المسؤوليات، وليس من السهل إسعاد طفل فى زمن بائس.

ولعدة سنواتٍ تالية، ظلَّت تلوك تلك الأكاذيب المنمّقة وهى غير مصدِّقةٍ بها. لكنه حُكم الاضطرار وضرورة التبرير.

***

صبيحةَ يوم ميلادها الرابع والثلاثين، راحت تتأمل فى مرآتها التجاعيد التى بدأت تغزو وجهها قبل الأوان. ولحظتها شعرت بفزعٍ خفىٍّ وقلقٍ زاد من مقداره، خوفُها مما يجرى فى شوارع البلاد من هياجٍ ومبيتٍ فى الميادين وانعدام للأمان، لأن أحرار الناس نفد صبرهم وصاروا مُصمّمين على خلع الضِّرس السلطوى المتسوِّس. السياسة لم تكن يوماً تهمها، لكنها يومها رأت فى المساء شباباً فى الشوارع يموتون وهم سعداء ومتحمسون، ليلتها ابتأست ساعةً ثم نسيت نفسها حيناً، وأحبَّتْ بلادها. وفى الأيام التالية، توسَّلت السبل وسألت معارفها فعرفت طريقها إلى السامر المنصوب فى ميدان التحرير، فذهبت إليه لالتقاط الصور وهى ترسم على خدَّيها علم البلاد، وتبتسم للكاميرا.. كانت أيامٌ لذيذة لكنها سرعان ما انحسرت.

خلال العامين الهائجين التاليين ارتبطت "دودو" برجلين، الأول شابٌّ ثائرٌ يكبرها بثلاثة أعوامٍ متعلمٌ تعليماً عالياً، يعمل مدرِّساً

بالجامعة لكنه لا يشبه المعيدين والدكاترة الذين عرفتهم سابقاً، كان اسمه سعد. والآخر رجلٌ موسرٌ يكبرها بعشرين عاماً عنده شركة لتطوير مهارات الموظفين، ولا يؤمن بالثورات اسمه "سمير" ويناديه العاملون فى شركته: الباشا.. أحبَّت "دودو" الاثنين، وأحبَّاها، وعرفت طريقها إليهما من دون أن يعلم أحدهما بوجود الآخر، وكان ذلك بالنسبة لها عبئاً يمكنها الاستراحة منه، لو كان بالإمكان تحقيق حلمها الذى لا تجرؤ على التعبير عنه، ولو بالمزاح: أن تتزوَّج الاثنين معاً. لأنهما عندها، يكمِّلان أحدهما الآخر.

عندما باح لها "سعد" بأنه صار يميل إلى تلك الفتاة الثورية الملحدة التى اسمها "سمية" تركته من فورها فصار عندها نسياً منسياً، واستثمرت أوقاتها ومفاتنها الآيلة للغياب فى العلاقة الأخرى. وبكل الحسم والعزم ألقت الشِّباك وتفنَّنت فى إبداء الوفاء، حتى استطاعت أخيراً أن تظفر برجلها الآخر "سمير" وتتزوَّجه عرفياً.

الأيامُ تلعبُ بالناس. خلال الأشهر الماضية أنالت المُخاتلةُ آخرَ أزواجها كلَّ فنونها ومفاتنها، وأسعدته، واستنفدت مخزون صبرها. كان يريد منها اللحظات الخلوية المؤقتة، وكانت تريد منه المعتاد من الأشياء: شراء شقة باسمها والسماح لها بالإنجاب، وإهداءها سيارة فى عيد ميلادها ليرتفع رأسها به بين النساء. لكن "سمير" ظل يخايلها بالهدايا محدودة الأثمان، ولا يطلق يدها فى أمواله لأنه يخشى من أم أولاده، ومن أولاده. ثم صار يخاتلها بالمكشوف من حيل الرجال مع النساء، مثل خروجه قبل قليل متأنقاً، وزاعماً أنه سيقضى كالمعتاد

وقتاً مع أصحابه، عند أحد أصحابه وقد يتأخر.. هو لا يعرف أنها تعرف بعلاقته الجديدة بالبنت الجربوعة التى التقى بها قبل أسابيع، واستأجر لها فى بداية هذا الشهر شقة بحدائق الأهرام. ولم يخطر بباله أن شريكه فى الشركة "خالد خلوصى" تطوع منذ فترة بنقل أخباره لزوجته العُرفية "دودو" المثيرة لخيال الرجال، أملاً فى أن يشاركه يوماً فيها أو ينال منها نيلاً.

***

فى موضعها بالصالة جلست "دودو" التى كان اسمها "ديانا" ومن قبل ذلك "دنيا" فلم تتحرك منذ خرج سمير متعجلاً بعد الغروب، إلا للاتصال بالمتنمِّس خالد خلوصى والرد على اتصال صديقتها كوكى وتقليب قنوات التلفزيون بالريموت. فلما انتصف عليها الليلُ، كانت تُدير برأسها آخر الخطط الرامية إلى حصولها على أحلامها المحدودة، كلها أو بعضها، لا سيما أن نوالها قد صار قاب قوسين أو أقرب قليلاً. قالت فى نفسها إنها لا تريد من "سمير" إلا طفلاً وشقةً وسيارةً ومالاً يُدَّخر فيؤمن الأيام التالية، وهذا حقها الطبيعى.. الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، قامت من قعدتها التعيسة لتصفيف شعرها وإسباغ المساحيق الملوَّنة على وجهها، انتظاراً لرجوع سمير الذى تعرف أنه لن يلمسها الليلة، لكن عليها القيام بما عليها عساها تصل يوماً إلى ما تريده منه، أو يجعل الله لها منه مخرجاً.. لوَّنت وجهها بالمساحيق بأناة وصبر، واستعدت لاستقباله، وهى لا تعرف أن "سمير" أخذ معه الورقة

العرفية التى كانت مخبوءةً فى خزانة الملابس، ومزّقها فور نزوله من الشقة المستأجرة. وذهب مفارقاً وناوياً ألا يريها وجهه بعد اليوم.

بؤسُ الملكة

وصلت "هويدا" منهكةً فلم تكد من فرط الإرهاق تنتبه إلى تفاصيل بيتها الجديد. تركت شنطتى سفرها المتكوّرتين فى الصالة، حيث تركهما البواب، وأوصدت بالرتاج بابها الخشبى الرقيق المحلى بزجاجٍ مغبَّش يمكن بيسرٍ كسره من الخارج وفتح الباب. لكن المكان هنا آمنٌ ولن يجرؤ أحدٌ على اقتحامه، أو اقتحامها. ألقت عنها بعض ما كانت تلبسه، وهى فى طريقها إلى غرفة النوم، التى هى الغرفة الوحيدة بالشقة، وهناك رأت أن خزانة الملابس الصغيرة لن تكفى ملابسها، ولكن لا بأس. والسرير صغير نسبياً، ولابد أن يلتصق بها أى شخصٍ يشاركها فيه، ولكن لا بأس. ورأت بعد دقائق أن المطبخ صغير جداً، ومفتوحٌ على الصالة على الطريقة الأمريكية، ولو جعلوا كلاهما أوسع قليلاً لكان هذا المكان ألطف، ولكن لا بأس. فهذا السكن المؤقت.

من خلف زجاج الشباك الألوميتالى الكاشف، رأتْ من الدور الأخير المنظر الفسيح الواصل بين الأرض والسماء، ورؤوس البناياتِ العاليةِ لهذا المجمع السكنى "الراقى" المقام بجوار عدّة تجمعات سكنية، فى هذه المنطقة الصحراوية ذات الطابع الخليجى الذى اعتادته، فما عادت تستغرب أنفاسه الخانقة. استغرقت رحلتها بالطائرة ثلاث ساعات لتصل إلى مطار القاهرة، وثلاث ساعات من المطار حتى وصلت إلى بوابة التجمع السكنى المتباعد عن صخب العاصمة، القابع فى هذه الناحية الصحراوية الواقعة على طرف الطريق المتجه إلى الإسكندرية.

"لابد أنهم تعبوا كثيراً فى غرس هذه الشجيرات النحيلات، وفى

بسط سجاد النجيل على سطح الرمال". حدَّثت نفسها بذلك سراً، وابتسمت وهى تُلقى عنها ما بقى من ملابس، وتستلقى على السرير الصغير عاريةً إلا من أمانيها. وبعد حين أغرقها نومُ القادمين من بلاد الغربة، وتوقٌ الآملين فى الاستقرار بعد طول ترحُّل.

كأنها سُلبت الصحو بالمحو أو غابت بالنوم عن الوجود حيناً، فلما انتبهتْ فجأة وجدت نفسها غاطسةً فى كتلةٍ من ظلام ثقيل، مثل دعسوقة وقعتْ فى كومة كبيرة من قطنٍ أسود مندوفٍ. فى الثوانى الأولى للانتباه، سألتْ نفسها وهى تزيح شعرها عن وجهها: أين أنا؟ .. هاه، هذا بيتى الجديد، وتلك نومتى الأولى به بعد إنهاك السفر. كان يجب إضاءةُ مصباح الصالة قبل نومى، لكننى لم أتوقّع الغرق فى النوم من العصر إلى هذا المساء الساكن. "كم الساعة الآن؟ أين تليفونى المحمول؟".. ياه، الواحدة ونصف بعد انتصاف الليل، وهذه عدة اتصالات من "كيمو" ومن رقم آخر لا أعرفه، لا مشكلة، سأعرف فى الصباح.. أين أنت أيها الحمَّام، وأين النسكافيه، وأين زجاجة النبيذ.

***

أسبغت هويدا استحمامها بعدما عبَّت قهوتها السوداء، فاستفاقت، ثم خرجت إلى الصالة من دون ملابس فالتقطت من طرف الشنطة الأصغر إحدى زجاجتَي النبيذ الفرنسى، والفتَّاحة، وكوباً لا يناسب المشروب لكنه يفى بالغرض. أطفأت الأنوار، وجلست خلف زجاج الشباك تفكر فيما كان وما سوف يكون، فانسابت بداخلها الحوارات الرقراقة ناعمةً، كشعرها المتقاطر منه الماء:

لن أتصل بكمال الآن. الصباح رباح. وسوف يعاود الاتصال فور استيقاظه، وأظنه سيدعونى غداً للغداء. طبعاً. لابد أنه أعدَّ الخطط المبهجة، بعدما طاوعته فى المجيء معه إلى مصر. المرة الماضية أمضينا شهرين فقط فى بيروت، لكنه لم يكن على راحته معى، لأن زوجته أصرَّت على صحبته فلم يمكننا الخلوة إلا ثلاث مرات خلال الشهرين، مع أننى سكرتيرته والمفروض أن أكون معه فى معظم الأوقات. أتوقع أن يرتِّب لقاءً خلوياً بعد الغداء، فنحن لم ننفرد منذ فترة بسبب الأحوال الخانقة فى فرع الشركة بالخليج. الآن كلنا فى مصر، كل المصريين عادوا لبلادهم. كيمو بوظيفته ذات المرتب الدولارى، وزوجته التى سوف تنشغل بأقاربها بعدما ابتعدت عنهم سنوات، وأنا.. الحرة.

أنا لم أحقِّق ما أحلم به، مع أننى تخطَّيت العام الماضى الثلاثين من عمرى وكُلى ذكاءٌ وحيويةٌ وجاذبيةٌ. بشهادة الجميع. ماذا ينقصنى لأحقق أحلامى! صحيحٌ أن وظيفتى الحالية لا بأس، بها وراتبها دولارى، ومديرى يأخذ منى أثناء العمل وفى وقت اللعب، كل ما يريده. فهو فى الصباح "كمال بك" أو "الأستاذ كمال" وإذا انغلق علينا الباب صباحاً أو مساءً، هو "كيمو" أو "كتكوتى" أو ما طاب استماعه من أسماء التهوين والتدليل. ظلُّه ثقيل، ويفرح حين أصفه بخفة الظل. وذكاؤه محدود، ويفرح حين أُحدق فيه معبِّرة عن انبهارى بحدَّة ذكائه. وهو عنِّينٌ ضعيف، ويبتهج بما يظنه فى نفسه من قوة ذكورية خارقة للعادة.. كيمو تافهٌ وأقلُّ بكثير من المعتاد، لكنه مهمٌّ لى فى هذه الفترة، ولابد أن أحافظ عليه حتى حين.

أحلامى المستحيلة، ليست مستحيلة. وما نويته الأيامَ الماضية عند تحديقى فى صور هذا المكان قبل المجيء إليه، هو حلمٌ من الممكن جداً أن أحقّقه. كفانى ما عانيتُ من السفر والبهدلة، وقد مللتُ الزيارات لمصر والشرب من ماء النيل، لأعود إليه. سأستقر هنا وأشرب النيل كله، وأكون أنا الوادى ودلتاه. وهذا المكان سوف يكون كله لى، يوماً ما، وسأجعل اسمه عربياً صريحاً "مدينة الحلم". لا، هذا الاسم غير موسيقى. سأجعل اسمه " مملكة الحلم". نعم، مملكة الحلم اسمٌ يناسبنى ويناسب حلمى الذى سأحقُّقه فى الفترة المقبلة، فأكون ملكة مدينة الحلم.. ملكة الأحلام غير المتوّجة.

كيمو التافه يعرف رجالاً مهمّين هنا، ولولاهم لما صار مديراً ذا شأن، مع أنه غير موهوب مثلى. ومن كبار معارفه حسبما قال لى مرة، صاحبُ هذه المدينة السكنية، والشركات الكثيرة، والأعوام التى تخطّت الستين بسنتين. وعرفت باجتهادى فى البحث أن الرجل أرمل، ولابد أنه يعانى من أمراض الوحدة وأعراضها، ومن هنا سيكون المدخل إليه. لن أتعَّرف إليه قبل أن أعرف أصحابه، كيمو سوف يقرّبنى منهم إذا طلبت منه ذلك بطريقة غير مباشرة، ما دمت أعطيه ما يطلبه منى بطريقة مباشرة.. من كيمو، إلى أصحاب صاحب هذه المملكة، إلى لفت أنظار مالك المملكة، إلى ارتقائى إلى القمة. نعم، سأجعله يتمنانى، ثم أتمنّع كالموافقة وأوافق كالممتنعة، سوف أحيّره وألهب خياله حتى لا يجد فى النهاية بُداً من السبيل الذى ليس منه بُدّ.

المعلومات التى عندى تقول إنه من أسرةٍ ثرية نجحت قبل خمسين

سنة فى المراوغة، فأفلتتْ من البلاد بأموالها ونجتْ من زمن السطو السلطوى على أموال الأثرياء لإرضاء الفقراء وكسب تأييدهم، واستثمرت الأسرة فى خارج البلاد ثم عادت إلى مصر بعد الانفتاح، وانفتحت.. والمعلومات التى عندى تقول إنه غربى التعليم، وسأكلمه بلهجتى البريطانية الفخمة.. وإنه يحب معاقرة الأنواع الغالية من الخمور، وسأسامره أثناء جلساته وأحسو من كؤوسه. وإنه يحب قصيدة "الأرض اليباب" الصعبة وأشعار "أمل دنقل" الأرقّ، وقد حفظت ذلك وسوف أتأنّق فى الإلقاء حتى أعرِّفه روعة هذه الأشعار، مع أننى لا أحب تلك القصيدة الإنجليزية السخيفة. لا مشكلة. ليس هذا وقت الحب، هو وقت العمل الدؤوب لتحقيق الأحلام.. حسناً يا دودو، ركِّزى وراجعى خطوات الخطة: إرضاء كيمو للتقرُّب برفق من معارف وأصدقاء المالك، إيصال أخبارى وطريقة نطق أشعارى للمالك. اللقاء العابر والقاء تلك النظرة الحالمة فى قلب عين المالك، استعمال كل الحيل الموافقة لمزاج المالك، امتلاك المالك.. ثم: أنا الملكة.

***

مع أول ضوء للفجر، عبَّت "هويدا" آخر أكواب النبيذ الذى نفدت زجاجته، ونفذت فى روحها خيالاته الهائمة. وبتكاسلٍ مَلَكىٍّ مخمور، فتحت شباكها فأحاط بها الهواءُ البكورى اللاسع ببرده، وعندئذٍ مدّت ناظريها ومطّت ذراعيها بطولهما ثم انتبهت فتراجعت عن حافة الشباك، كيلا يراها من بعيدٍ أحدُ سكّان مملكتها الواسعة. لا يصح للرعايا أن يروا الملكة عاريةً، لا قبل تتويجها ولا بعد التتويج.

لما تلاعب النبيذ برأسها، حادثت روحها من غير صوت: يا هويدا.
يا دودو. يا دُدَّه، يا ملكة الحلم. اليوم سيبدأ سعيك لأحلى أحلامك وستكونين قريباً الملكة. فتصرفى من الآن وتفكَّرى وتكلمى. كملكة غير متوَّجة. وما حاجتى أصلاً للتاج. يكفينى أن أضع فوق رأسى مرةً واحدة تاج العروس، ليلة زواجى بالمالك، ومن بعد تلك الليلة لن أحتاج للتيجان الموضوعة فوق الرأس. أنا، سوف أوضع فوق رؤوس الجميع. وسأجعلهم يسموننى كوين هويدا. وسوف يسعدهم ذلك لأننى أستحقه، ولأنهم سوف يحرصون دوماً على إرضائى لإرضاء المالك. وسأتركهم يدركون مع مرور الأيام أن الملكة أهمُّ من الملك. وأهمُّ من المالك والمملوكين. أنا الأهم مما عداى لأننى الملكة المسيطرة.. كاملة البهاء.

***

الشمسُ البازغة أهدت "هويدا" أشعَّتها الأولى فملأتها مع أثر النبيذ ابتهاجاً. وأوحت لها بفكرة عبقرية: تصحو مبكراً كل يوم، وتستلقى بقلب الصالة على الأرض عاريةً، لتكسو الشمس جسمها بالسُّمرة الوردية التى سوف تحتاجها الفترة القادمة لتحقيق حلمها الملكى. والصحو مبكراً أصحُّ لجسمها الانسيابى، الفاره، الجميل. ولسوف تزيدها السُّمرة الساحرة فوق الجمال جمالاً، ولسوف توصل خصلات طبيعية بشعر رأسها، لتكتسى بالجلال الأنثوى المكمِّل للجمال. المالك يمكنه بوجاهته المالية الوصول للجميلات. ويستطيع نيل اشتهاءاته بسطوته. ولابد أنه نال كثيراتٍ وينال الآن التى يريدها، وقد تزوَّج سابقاً بامرأةٍ

تدلُّ صورتها على جلالٍ ووقور، فالمرحومة كانت ابنة أسرةٍ مشهورةٍ وثرية كأسرته، لكنها لم تكن جميلة مثلى. نعم، لقد حظى بالجمال والجلال مُنفصلين وعليه الآن أن ينبهر بالكمال الأنثوى النادر، عند اقتران الجمال بالجلال. سيجد فىَّ الذكاء مع الشعر الناعم الطويل، والكلام المنمق مع النظرة الساحرة، والرقى فى المعاملة مع الوحشية الفراشية، والتأنق المتسامى أمام الناس مع العهر المريع عند الانفراد به. سيُذهل المسكين وتسقط كل أقنعته الاجتماعية، ويُسلب بسحر ملوكيتى الأنثوية التى بلا تاج، فيرجو أن يتوِّج بها حياته. ولسوف أُمتعه وأستمتعُ بالاستيلاء عليه، وعلى الجميع، المهم أن أصل إليه بسرعة وأن يمتدَّ عمره حتى يتحقق به الحلم.

***

لما بلغت الساعةُ التاسعة صباحاً وتطاير أثر المشروب واشتدت الشمس، مالت هويدا مجدَّداً إلى النعاس السريرى اللذيذ. وشكرت فى سرها مديرها التافه "كيمو" الذى أتاح لها إجازة الأيام الثلاثة المقبلة، قبل الانتظام فى العمل يوم الأحد القادم. قامت برفقٍ من جلستها المسترخية، ومضت بخُطى مترنِّحةٍ حتى وضعت رأسها فوق سريرها الجديد، وراحت بحنوٍ بالغ تفكر فيما يمكن أن تفعله فى تلك الأيام القادمة، السابقة على "الشُغل" والانشغال بالخطط الرامية لتحقيق الحلم الملوكى.

قبل غرقها فى طيَّات الغياب المؤقت، أعادت تشكيل الخطط حتى

كادت تحسم أمرها على الترتيب التالى: منح "كيمو" يومها هذا، والليلة الآتية، ثم تقضى نهار الغد فى "البيوتى سنتر" ومساءه فى بيت عمتها الأرملة. فهى قريبتها الوحيدة التى بقيت فى القاهرة، بعدما تصحَّرت الأسرة وتناثر أفرادُها فصاروا أُجراء فى الخليج، فى وظائف متفاوتة. النطاق الأسرى مهم لاستكمال الصورة العامة. وبعد غد، سيكون نهاره للتجوُّل فى أنحاء هذه المدينة السكنية المسوّرة، التى لم تُملك بعد، وسيكون ليله للراحة اللازمة لبدء الدخول فى المسارات المستقبلية المشرقة.

***

لا تدرى "هويدا" هل ذهبت فى سكرة نُعاس أم كانت تلهو بالأحلام الحانية، لحظةَ سمعت جرس الباب يزعق.. قامت من سريرها كالمسلوبين وراحت تترنّح حتى نظرت من العدسة، فوجدت مديرها التافه خلف الباب يدير عينيه يُمنةً ويساراً من فرط القلق. فتحت له وهى تتوارى خلف بابها الموارب، من دون أن تستر عريها، وقالت مندهشة:

- كيمو، إيه اللى جابك بدرى كده.

- بدرى إيه يا دُدَّه، الساعة دلوقتى اتناشر ونص، يللا إلبسى حاجه علشان ننزل.

- ياه. آه يا حبيبى، صحّ، عندك حق. طيب قولّى، هاتغدّينى فين النهاردة؟

- لأ، مُش انا. شوفى إنتِ هاتروحى النهاردة مع منصور المرتضى،

هاتقضّى معاه اليومين اللى جايين فى الساحل الشمالى، عنده كابينة هناك. وهوَّه مُعجب بيكى من ساعة ما شافك فى بيروت السنة اللى فاتت، أكيد لاحظتى.

- إيه اللى بتقوله ده. كيمو، أروح معاه أعمل إيه.. لأ، أنا لا يمكن اعمل كده.

- يا سلام ياختى، أُمَّال انتى كنتى بتعملى إيه قبل كده. إيه، نسيتى عمايلك فى بيروت، ولاَّ شُغل الخليج اللى كان من تحت لتحت. ولاَّ انتِ يعنى فاكرانى كنت نايم على ودانى، أنا بس كنت بفوِّت بمزاجى. وبعدين الراجل معجب بيكى، وعندنا معاه مصالح.

- يعنى إيه يا كيمو. إنت ناوى تستعملنى علشان مصالحك ولاَّ إيه. إزاى تعمل كده.

- المصلحة واحدة ياختى. يلّا إلبسى، الراجل مستنِّى عند البوابات، وزعلان أوى من التأخير ده.

- كيمو، إنت إزاى هاتعمل فيَّا كده، وأنا بحبك. إنت ناوى تشغَّلنى إيه؟.. آه، يعنى كنت جايبنى معاك أصلاً علشان كده.

- أُمَّال كُنت جايبك ليه، ما كان فيه كذا واحدة فى الشركة أحلى منك ميت مرَّة، وتتمنى العقد ده. بس هوَّه عايزك إنتى، أرزاق. وعلى فكرة، منصور هوَّه اللى مأجَّر لك الشقة دى، ودافع لها شهرين مقدَّم. وبعدين إحنا عاوزينه فى شغل كتير بعد كده.. يللا ياختى، إلبسى، وخلَّصى.

انتباهٌ لا إراديّ

بعدما هجرتنى "نوال" انزويتُ عن الأكوان حيناً، ثم عدتُ للعالم واعتدتُ ارتياد المقهى الفسيح المُطل على ميدان "ابن سِندر" حيث ألمُ الخُضرة المُغبّرة إن جلستُ على مقاعده البرانية، وأجد بعضَ السكينة فى هدوئه إن استعصمتُ بآخر طاولاته الجوّانية المتتالية، المفصول بينها بحواجزَ عاليةٍ يصل ارتفاع كل حاجز منها إلى طول قامة. الحواجز مكسوّةٌ بجلدٍ صناعىٍّ أسود قديم، مُبيَضّةٌ حوافُه من أثر العتاقة والقِدم المنذر بالبِلى والاهتراءِ التام.

صار المقهى مكان انفرادى الإرادىّ نهاراً، أما ليلاً فلا أجد العزاءَ إلا فى سيرى الهادئ على الشريط الرصيفىّ الممتد على خدّ النيل، عند المنطقة المسماة رملة بولاق. فى النهارات أرى الناس ولا أبصرهم حقيقةً، لكن هسيس حضورهم من حولى يؤنسنى فأطمئنُ إليه، من دون أن يمسّنى. لا أريد أن يمسّنى أىُّ شيءٍ أو شخصٍ أو حلم خادع. وفى الأمسيات النيلية لا يكون عادةً أحدٌ بقربى فيشوّش علىَّ، ويشغلنى عن التهامس والبوح الجوّانى لموجات النيل الحزين الذى أيقنتُ مؤخراً أنه يشعر بى. فلن يشعر بالحزين إلا حزينٌ مثله.

الليلة الماضية وصلتُ ساعةَ الغروب إلى حافة "الكوبرى" الهابط هناك قرب المبنى المهيب الخالى من الملامح، المكتوب على واجهته "الهيئة المصرية العامة للكتاب". وعلى الرصيف المقابل للمبنى بدأتُ مسيرتى المعتادة بينما الشمسُ الغائبة تضمحلُ من حولى أنوارها وتخبو من خلفى، فيستعدُ النيلُ لاكتساب اسوداد ردائه المسائى المناسب للبوح القلبى.

***

بعدما هجرتنى نوال طلبتُ من عملى إجازةً بدون راتبٍ، فوافق مديرى على الفور لأنه كان يريد توظيف واحدٍ من أقربائه، وينتظر بصبرٍ نافد خلوّ أىِّ درجة وظيفية. سألنى يومها إن كنت قد نويت السفرَ، فقلتُ: يعنى. وسألنى إن كانت وظيفتى المُنتظرة مجزية الراتب، فقلتُ: يعنى. وختم لقاءنا بقوله إنه موافق على طلب الإجازة اعتباراً من تاريخ اليوم، وإنه يفعل ذلك لأجل خاطرى وحرصاً على مصلحتى، فقلتُ: شكراً.. ماكنتُ بالطبع أنوى السفر ولا البقاء، وإنما كانت تنتابنى الرغبة فى الانفراد والابتعاد عن مقر عملى، كيلا أرى محبوبتى السابقة "نوال" التى تعمل فى قسم العلاقات الخارجية. لماذا وصفتها بالسابقة، مع أن حضورها لا يزال يستبدُّ بأنحاء روحى، وعطرها يعبق فى الأنحاء المحيطة بى.

نوال زميلة تُفاحية الملامحِ والرائحةِ، والاشتهاءِ الذى وقعت به الخطيئة الأولى. لا أدرى باليقين متى تقاربنا خلال دوامنا الوظيفى، ثم جرىٍ بيننا خيلُ الكلام فى كل مضمار. ومتى صرتُ أستبقيها فى قلبى بأن أُطيل التفكُّر فيها يومياً، قبيل نومى، ومن بعد ذلك صرتُ مشغول البال بها فى لحظات صحوى وفى سكرات نومى. كنتُ أحلم بها كثيراً، ولما أخبرتها بذلك ابتسمتْ ونظرتْ إلى متشكّكةً، فلم أسهب فى تبيان حالى حتى لا تتوهّم أننى أُبالغ أو تظننى من مُحترفى الكلام، لا ضحايا الغرام. الغرامُ عذابٌ يعصف بالقلب إذا مال وهوى، وهوى مُتدحرجاً بلا إرادة فى دهاليز العشق وشقوق الشقاء.

ذكرياتى كلها عواصفُ صحراويةٌ، عتيةٌ، لا نجاةَ منها، ولا استغناء

عنها. الأعاصيرُ الدوّارة بعنف بدأتْ فى اقتلاعى وتقطيع جذورى منذ فترة، وتحديداً فى صباح اليوم الرابع عشر من شهر ديسمبر الماضى، إذ تشجّعتُ بعد طول تردُّد وطلبتُ من نوال أن نلتقى يوم الإجازة الأسبوعية، فوافقتنى من فورها فاندهشتُ وطرتُ فى سماوات المُنى فَرِحاً.

منذ أول لقاء تلاقينا مثلما يلتقى الناظرُ فى المرآة مع صورته، وعرفنا أننا نتناغم فى أمورٍ لا حصرَ لها، وأن غاية أمانينا سواء ومُنتهى مرادنا واحدٌ. هو أن نجد شريكاً يشعر بالاحترام نحو صاحبه ويحبه بصدق، ويجد معه الأمان اللازم لاحتمال الحياة. كان لقاؤنا الأولُ بديعاً ومُبهجاً ومبشّراً بكثيرٍ من الأمنيات، فتكرّرتْ اللقاءاتُ حتى مرّت الأشهر الثلاثة التى وقع بعدها انفصامنا المريع، النهائى. ليته ما وقع.

***

قبالة المبنى الغريب المسمى "المركز التجارى" جلستُ أمس منفرداً أمام النيل، وعلى مقعد الاعتراف السرّى الصامت بُحتُ للموج المتسارع بما حضرنى من ألم الفراق، ثم شكوتُ له بنظرتى وحدتى وحيرتى من بعد ابتعاد المحبوبة، وفراغ روحى الهائمة فى فراغى اللانهائى. وحكيتُ للنيل بلا نُطقٍ، بعضاً من حسراتى المُودية بالرمق الباقى بقلبى، المزلزلة لكل رواسخى. وأسهبتُ فى سرد التساؤلات المستبدة التى لا أجد عندى إجابةً عليها.. كانت تساؤلاتى مؤلمةً، ومتتاليةَ التدفقِ كموجات النيل:

هل أخطأتُ أصلاً حين اقتربتُ من نوال، أم أخطأتُ لاحقاً لأننى ابتعدت؟ لماذا أنظر للأمر على أنه كان من الخطايا، وقد كان مفعماً

بروحانية ترفع بالعالم عن أرضيته، وتضعه بين يدينا فنتوهَّم أننا نمسُّ سقف الأكوان كلها؟ وأىُّ شئٍ ذاك الذى يستحق أن نفترق من أجله، ولا شئَ أجلّ مما كان بيننا.. جاوبنى أيها النيلُ الصبور، الطيب.

تموُّجات النيل تقاربت فى ظلمتها الباطنة، فتشكّلت الصورُ على انعكاس الأضواء الخافتة، الآتية إلى صفحتها من الضفّة المقابلة، حيث كنتُ سابقاً أجالس المحبوبة وأهنأ بحضورها. حدّقتُ فى الماء الجارى، فرأيتُ بعين قلبى أشكالاً كثيرة تتوالى على صفحة المياه. هذه امرأةٌ حسناءُ تبتسم لى، وهى تزيح للوراء خصلات شعرها اللامع بالوعود. المرأةُ شهيةٌ لكنها لا تشبه نوال، ولا ميل عندى إليها. فجاءةً عبستِ المرأةُ فقبُحتْ، وسرعان ما ذابت بوجهها الشائه فى الموجات الجارية فى كل اتجاه.. وهذا طفلٌ يانعُ الوجه والنظرات يريد أن يولد من رَحم الحب، من رحم يُحب، وإلا فلا رغبة عنده للمجيء إلى عالمنا المُصطخب.. وهذا وجه أخى الأكبر "حسّان" الذى انزوى عنّا قبل سنوات، واعتكف وحيداً فى الغرفة الوحيدة التى على سطح منزلنا، وصار يصرف كل أوقاته فى الصلوات والأذكار. وكان يهمس لمن يزوره أو يرجوه العودة، بعبارة واحدة "انسونى، تستريحوا وأستريح" وكانت أحواله تقول: ما عدتُ أُنتمي للعالم الذى تعيشونه.

رأيتُ وجه أخى رحمه الله يتموّج على صفحة النيل، ورأيت ذراعيه تمتدّان بطول امتداد الماء كأنه يدعونى إليه، ويريدنى معه، كى يستريح منى الآخرون وأرتاح. ابتسمتُ له بأسىً فابتسم، وحاورته بعينى فاتّسعت عيناه أمامى وحاورنى بلا مفردات، أو بطريقةٍ غير تلك التى يعرفها

عموم الناس. الحديث امتد بيننا حتى تجاوز الليلُ المنتصف، فضعفَ موجُ النيل عن احتمال حضور صورته، أو ضعفت عيناى عن رؤيته. كان آخر ما جرى بيننا من الكلام، سؤالى:

- وما حالكَ الآن بعد رحيلك يا حسّان ؟

- حالكَ .

- كيف يا أخى وقد كنتَ تُعطى دُنياك لآخرتك.

- تأخّرتُ، فلم أكن من المقرّبين .

- لكن الكل شهد لك قبل وفاتك بأنك كنتَ صالحاً، ومن الأبرار..

- حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرّبين.

- فماذا عنى إذن، وأنا بعيدٌ عن ربّى تماماً.

- ما ابتعد عنه أحدٌ من خلقه، ولا اقترب. القُرب والبُعد أحكامٌ مكانيةٌ، ولا مكانَ له سبحانه. فهو المُتعالى عن المكان والزمان، وهو مكوّنُ المكان والمُوهمُ بالزمان.

- لا أفهمك يا حسّان..

- لن تفهم وأنت حبيس ذاتك. ولكن يا محمود، عليك بتصفية قلبك ومواصلة العبادة حتى يأتيك اليقين.

- وكيف أعبده. والقلبُ ممتلئٌ بغيره، ومشغولٌ بمحبوبةٍ هجرتنى.

- فى الحب، القُربُ والبُعد واحدٌ.

***

لم أفهم كثيراً مما باح به أخى المتوفى، بعينيه، فقمتُ من جلستى ومشيتُ بخطىً تتخبَّطُ. بلا وِجهةٍ أرضاها، ولا اتجاه. سرتُ وبالأحرى سريتُ، بأقدام حائرٍ يريد العودة إلى منزل أسرته، لكننى كنتُ فى عكس المسار المفروض، فبدلاً من السير باستقامة حتى أصل إلى ميدان التحرير لأجد هناك ما يوصلنى إلى قرب المنزل، ارتقيتُ "الكوبرى" الأنيق ثم اتجهتُ معه إلى اليمين، فوصلتُ فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل إلى طرف الجزيرة القاهرية الوسطى، ذات الشوارع الضيقة الطويلة المكلّلة بأطراف فروع الأشجار. مررتُ فى طريقى بقصر الأميرة الذى انتزع من أصحابه ليصير متحفاً، وبالبناء المتحفى المسمى مجمع اللغة العربية، ثم وصلت إلى النهاية. هنا النيل يمتد يميناً ويساراً، فيثير الاشتياق إلى البحر المحيط الكامن فينا. وهنا كنا نقضى أوقاتنا الصافية، المُجلّلة سماؤها بربابِ الحُب.

فى مكاننا المهجور رأيت رجلاً نحيلاً يجلس كالفراشة على حافة مجرى النيل، فنزلتُ إلى موضعه أو بالأحرى ارتقيتُ حتى وألقيتُ عليه التحية المعتادة، مع أننى مستوحشٌ من سائر الناس. غير أن هذا الرجل ليس كبقية الناس. قلت "السلام عليكم" فقال: لا سلام إلا لمن استقام.. فقلتُ فى سرّى: ما هذه الليلة الليلاء! فجاوبنى الرجل كأنه مُطّلعٌ على باطنى، قائلاً: "هى ليلتُك البرزخية".. حين سمعتُ ذلك شعرتُ بدوارٍ أدار نظرى حائراً فى الأنحاء، فجلستُ قرب الرجل خشيةَ الوقوع وحذرَ السقوط، وقلتُ له:

- وما معنى البرزخية ؟

- البرزخُ هو الحائلُ بين الشيئين.

- وما معنى الشيئين ؟

- الدنيا والآخرة شيئان، الظاهر والباطن شيئان، المحب والمحبوب شيئان. مهما توهّما أنهما شئٌ واحد.

- ما اسمك يا عم الشيخ ؟

- وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو..

- أنا لا أفهمك.. سألتك عن اسمك !

- الاسم رسمٌ وتحديد، وأنت فى لبسٍ من خلقٍ جديد.

- أنا اسمى محمود.

- المحمود ممدود، والحسّان منّان.

اعترانى خوفٌ مفاجئ من الشيخ الغريب، حين نطق اسم أخى الذى كنتُ قبل ساعة أحاوره بلا كلام، فى تلك الحضرة البرزخية التى كانت على الضفة الأُخرى لنهر الحياة. انتابنى فزعٌ. كيف عرف اسم أخى، وقَرَنه باسمى؟ ربما هو واحدٌ ممن يسخِّرون الجن، أو لعله رجلٌ ساحرٌ. أو لعلنى أنا المسحور. أرانى على حافة هاوية الجنون، وعلىّ بالقيام من هنا فوراً و الفرار إلى فراشى الآمن بالمنزل، قبل أن يطيش عقلى عنى فلا أستطيع استعادته.. انتفضتُ واقفاً وقلتُ للرجل: شكراً يا سيدى، السلام عليكم، أتركك فى أمان الله.

كدتُ أفارقه فأنجو مما أخافه وأتوقاه، لولا أنه قال بعدما ابتعدتُ عنه بخطوتين: "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" فكتمتُ صرخةً كادت تنفلت منى وغاص قلبى بين الضلوع. تسمّرتُ فى مكانى وتصدّعتْ

أركانى، ومادتْ من تحتى الأرضُ فهبطت إليها وجلستُ ساكناً مسكوناً بطوارق الخواطر العواصف. فى غمرة حيرتى هذه بكيتُ، وأجهشتُ، وأردتُ أن يغرقنى النيل أو تأخذنى إليها السماءُ.

لم يكن الرجلُ الغريبُ قد التفتَ نحوى قبلها، لكنه نظر نحوى حين جلستُ بموضعى، وجاوبنى بعدما عدتُ إليه وتمالكتُ نفسى، فسألته عن سرِّ إدراكه لما دار قبل ساعتين من حوارٍ قلبى مع أخى المتوفى، فقال إن هذا الحوار ما دار. وهو يقول ذلك، نظر نحوى من قريبٍ فشهقتُ من قوة عينيه وكدتُ أغيب عن الوعى وعن الوجود، فتلوتُ بصوتٍ مسموع: "سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم". فابتسم الرجل وقال: الآن تذكره.

- ارحمنى يا شيخ، واتركنى أذهب من هنا فى سلام. فلا طاقة عندى على احتمال مثل هذا الكلام.

- يستعجلُ بها الذين لا يؤمنون بها.

- يا شيخ، حرام عليك. أود الذهاب عنك سالماً كما جئت.

- أتظن أنك جئت، ستعلم بعد حينٍ أنك جِيءَ بك.

- لماذا؟

- لأنك عانيتَ العشق، فتأهّلتَ للمجيء.

- عشق.. تقصد نوال! كيف تعرف كل ذلك؟

- ما زال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل..

علا أذانُ الفجر فقام الرجلُ وهو يقول: "والفرضُ أَوْلى من النَّفل". ونزل برفقٍ إلى النهر الجارى فأسبغ وضوءه وصلّى بمحاذاة الماء، بينما رُحتُ أنظرُ إليه مشدوهاً ومُتعجّباً من أحواله.. حين رأيته يصلى فى

خشوع انقشع عنى الرعبُ منه، وما عدتُ أتّهمه فى سرّى بأنه من أهل السُّفليات المخيفة.

***

عاد الرجل من صلاته إلى مكانه الأول، القريب منى، فصار مؤنساً بعدما رأيته يؤدى الفرض ويتحرَّر من رقِّ القرض. توقّعتُ منه أن يلومنى على عدم صلاتى معه، أو ينهرنى لأننى اتّهمته فى سرّى قبل قليل، أو يستكمل ما كان يقوله لى. ولكن لم يحدث أىُّ شىءٍ مما توقّعتُ، فقد التزم الرجل الصمت حتى تزحّفتُ نحوه وأنا أقول له بصوت كالصدى، إننى أراه مباركاً وأحسبه من الصالحين الذين يرون بنور اللّه، وأظنُّ أن اللّه قادنى إليه كى أستريح مما أعانيه..

- وما الذى تعانيه يا ولدى؟

- الفقد، والوحدة.

- كل موجودٍ مفقود، ولا وحدة مع الذِّكر.

- يا شيخ، يُعذّبنى فراق محبوبةٍ كانت أولى الأمنيات وآخرها.

- أحببْ مَن شئت، فإنك مُفارقه.

- لماذا؟

- لأن الحب يدوم، لا المحبوب.

- كيف يا شيخ؟

- حين تطلع عليك شمسُ الحق، ستعرف.

- أعرف ماذا؟

- تعرف إنك إن لم تر الله فى المحبوب، فهو ليس المحبوب. وتعرف أن الماء والهواء هما سرُّ الموجات، وأن المحبين أمواجُ فى بحر الحب.

أراحنى كلامه مع أننى لم أفهمه تماماً، إلا فى الصباح التالى.. قبل أن أفارقه، شكرته من قلبى على ما أفاض به من الخطاب، مع أن أمثالى ليسوا أهلاً لمخاطبته ومجالسته. وعدتُ من حيثُ أتيتُ مملوءَ القلب فارغَ الروح، فمشيتُ طويلاً حتى وصلتُ فى الساعة التاسعة إلى المقهى الفسيح المطل على ميدان ابن سندر، الذى اعتدتُ ارتياده من بعد افتراقى عن رحيق روحى.. عن نوال.. وجلستُ فى الطاولة الأخيرة التى بداخل المقهى، مع قهوتى، وبقيتُ مترقّباً كالسنّور ما سوف يتجلّى على قلبى من رَشحات النور.

دورانٌ إجباری

فى حدود الساعة العاشرة من صباح أمس، سمعتُ من خلف الفاصل القائم بين طاولات المقهى الفسيح، صوتَ أقدام تقترب نحوى من ناحية الباب. فلم أهتمّ بما سمعتُ لأننى كنتُ غارقاً فى أعماقى، يجرفنى إلىً جَوَلانى فى القاع وهَيَمانى فى سماواتى.. كانت قد مضتْ علىَّ ساعةٌ بمجلسى المعتاد بآخر الطاولات، حيث لا أرى إلا الحائط، ولا أحد يلحظنى ويشوِّش أحوالى المزدحمة بداخلى. طاولتى المنزوية لا يفصلها عن التى قبلها إلا القائم الخشبى المغطى بجلدٍ قديم، اهترأت حوافُه. جذبنى الصوتُ لأصحابه حين اقتربوا وانتبهتُ لا إرادياً وأصختُ، فسمعتُ بعد دقات الكعب العالى قولَ صاحبته لمن معها: المكان ده كويس، نقعد هنا يا توتو.

.. صوتُها تغريدٌ .

***

لم يشعر هذا المسمى "توتو" بوجودى ولا شعرتْ بى صاحبته، مع أنهما لو تقدما خطوةً أخرى لوجدانى جالساً خلفهما قابعاً فى موضعى مثل أثرٍ مندثر، ووجهى إلى جهة الجدار الأخير.. بنبرةٍ ذكورية خشنةٍ لا تُناسبُ اسمه، سمعتُ الشابَّ أو الرجلَ يقول لامرأته أو للفتاة التى معه، إن هذا المكان مناسبٌ فعلاً وعليها الآن أن تصغى إليه بكل جوارحها. كان نصُّ عبارته: ماشى يا حبيبتى، نقعد هنا، المهم دلوقتى اسمعينى كويس، علشان الموضوع مهم.

- يا صباح التوتر! خير يا توفيق، فيه إيه تانى.

- أبداً يا حبيبتى، بس عايزين نحط شوية نقط على الحروف.

كان صوته مغلَّفاً باتزانٍ قشرىٍّ يخفى فى باطنه القلق، وكان صوتها مشوباً بأشياءَ كثيرةٍ متضاربة. ترقبٍ ورقَّة، حيرةٍ وصبر، أملٍ وألم. أدركتُ أنهما وشك الخوض فى قولٍ ثقيل، فرأيتُ من الواجب أن أشعرهما بوجودى أو أقوم من موضعى، فلا أتلصَّص على ما يقولان من حيث لا يشعران. ثم رأيتُ الأليق أن أصرف عنهما اهتمامى، وأعاود عزلتى مع ذاتى ولا ألقى إليهما السمع، فعندى ما يكفينى من هموم أراها أجدر بالاهتمام. ولسوف يأتى إلىَّ بعد برهة النادلُ الذى صار الناسُ يسمونه "الجرسون" فيعرفان حين يأتى ناحيتى أننى موجودٌ بجوارهما، ومعزولٌ عنهما وعن سائر الخلائق.

شردتُ من جديد مع خواطرى وأخذتنى غيبةٌ تشبه الوسنُ، لكننى عدتُ منها لما سمعتُ صوت جارى يصلنى من خلف الجدار عالياً، وهو يقول بلسانٍ يتحسَّر إنه لن يستطيع احتمال هذا الحال. ثم تدفق بينهما من بعد ذلك الكلامُ، بلا توقف، فقالا:

- أنا بجد موش فاهمة. إيه الحوارات دى كلها، فيه إيه يا توفيق؟ لو انت ناوى تبعد، وعايز نفسخ، قول على طول.

- حبيبتى أنا كده قلت كل اللى عندى، إنتِ دلوقتى صاحبة القرار.

- قرار إيه. يعنى انتَ لا عاجباك صاحبتى الأنتيم، ولا لبسى، ولا طريقة تفكيرى، ولا مكياجى. طيب فاضل فىَّ إيه؟ إيه يعنى اللى اتغيّر؟ طيب وكنت خطبتنى من الأول ليه؟

- افتكرت إنك هاتتغيرى مع الوقت، بس واضح إن مفيش فايدة.

- يعنى إيه الكلام ده. إنتَ عايز إيه بالضبط؟

- عايزك تبعدى عن "سهام" خالص، وتلبسى هدوم واسعة شوية، وحشمة. وتبطّلى مواضيع السياسة ووجع الدماغ. وتخفّفى المكياج علشان مُش لايق مع الحجاب بتاعك.

- شوف يا توفيق. ماشى موضوع الهدوم. والمكياج. بس سهام صاحبتى من ابتدائى وانتَ شوفتها من أول مرة اتقابلنا، وكنت بتقول دايما إن دمها خفيف.

- آه. بس لقيتها بتروح الكافيه يوماتى، وبتشرب شيشة وسجاير. والله أعلَم بتعمل إيه تانى، واحنا ما نعرفش.

- هاتكون بتعمل إيه يعنى. وبعدين يا سيدى انتَ مالك بيها أصلاً؟

- لأ، مالى ونُصّ. إنتِ ناسية إنك هاتبقى مراتى، يعنى هاتشيلى اسمى. إزاى تبقى صاحبتك..

- أنا موش هاشيل حاجة، خلّى اسمك معاك. اتفضّل دبلتك. وابقى ابعت أخوك ياخد حاجتك اللى عندنا.

- والله انت حرَّة.

- أيوه طبعاً، حَرَّة ونُصّ. مع السلامة.

***

تباعدت دقّاتُ الكعب العالى رويداً، وهدأ إعصار الكلام الذى كان يدور بجوارى، بعدما جرف ما كان قائماً من قصور الرمال. ساد المكان الصمتُ. تردَّد فى باطنى صدى ذكرياتى. حتى أخرجنى من الدوار

صوتُ جارى المتوتر، وهو يُحادث صديقاً له عبر تليفونه المحمول. لا جديد فينا. سمعته يقول كلاماً شبيهاً بما قلته يوم فراقى المحبوبة، ولكن بلفظٍ أكثر ركاكة، وكالعادة أخبر صاحبه بأنه فكَّ الخِطبة ثم راح يشتكى منَ أن النساء يستحيل إرضاؤهنَّ، مهما حاول الرجلُ نيل هذا الرضا.. كان يسكتُ قليلاً، كمن يستمع إلى مواساة غير مُرضية، ثم يندفع بنبرةٍ متذمِّرة ليؤكد أنه لم يُقصِّر معها فى أىِّ شئ، وأنه متأكدٌ من أنها لن تصلح له، ولن تصلح من بعده مع أى رجل، ولسوف يجد هو من بعدها واحدةً تحبه وتعيش معه حسبما يهوى. قال: أيوه، أنا عارف يا عم، هىَّ كانت غلطة من الأول بس الحمد لله إن الموضوع وقف لحد كده، وبعدين دى أصلاً دلوعة وكنت هاتعب قوى معاها. يلّلا، مفيش نصيب.

قبل انتهاء المكالمة جاء "الجرسون" فأخذ من فوق طاولتى كوب العصير الذى شربتُ بعضاً منه، ولم يتوقف عند طاولة جارى ولا اهتم بما كان يقوله لصاحبه بصوتٍ متشنِّج. العاملون فى المقاهى ملُّوا الاهتمام بالحكايات المتكررة.

***

انتظرتُ أن يقوم جارى المجروح، الذى لم أره، فأقوم من بعده كيلا يُحرجه ويُحرجنى أننى سمعت على غفلة منه، كل ما دار مع محبوبته التى هجرته قبل قليل. ولن تعود إليه أبداً. المهاجر لا يعود، وقد يرجع المسافر، لكن الذى يرحل لا يرجع إلى الحال الذى كان قبل الرحيل.

انتظرتُ قيام جارى المحجوب عنى، لكنه أطال المُكث بمكانه فقمتُ مُتثاقلاً ومررت من أمامه من دون أن ألتفت ناحيته، ومضيتُ فى طريقى المؤدى إلى صخب الحياة. كان غافلاً عن مرورى به، مثلما غفل من قبل عن وجودى بقربه، وغفل من قبل القبل عن أمورٍ مُهمّة. الغفلةُ تحجبُ ما تحتها من الغفلات.

عند اقترابى من باب المقهى، وبلا قصدٍ، ألقيتُ عليه نظرةً عابرةً كانت كافية لإثارة ذهولى، تحريك حيرتى. فقد وجدته يشبهنى فى الملامح وحال الحسرة، ويلبس مثل ما ألبسه، ويجلس مثلما كنتُ أجلس. رأيته تائهاً فى موضعه، مندهشاً من فوت التمنيات، غاضباً مما جرى معه وليس مما جرى منه.. رأيته، أنا.

خرجتُ مضطرباً، وعلى رصيف المقهى لمحت طاولتين عامرتين. الأولى يجلس عندها عاشقان لم يحلّقا بعد فى سماوات الأمنيات العلوية، ومعهما صديقة العاشقة تمزح بخفةِ ظلٍّ لا تخفى على النظرة العابرة. العاشقُ متأنقُ الجلسة والنظرات، والعاشقةُ مبهجةُ الطلَّة. تلفُّ شعرها بغطاءٍ من النوع المسمى اليوم "إسبانى" ويزيد من رونق ابتسامتها، أحمرُ الشفاةِ الفاقع لونُه السارُّ للناظرين.. كانوا جالسين على بساط البسط، فى سعادة مفرطة، مؤقتة.

بجوار الطاولة الأخرى التى بطرف الرصيف، لمحتُ عجوزاً تجلس بأسىً وحيدةً مهدودةَ الأركان وشاردةً، لا تلتفت يُمنةً ولا يساراً. كأنها لا ترى إلا بئرها السحيق.. فى لحظة إشراقٍ مفاجئ عند عبورى الشارع الواسع، أدركتُ على نحوٍ خفىٍّ أننى كُلُّ ما أُريته. ومثلما كنتُ المتكوّمَ

بداخل المقهى فوق تلال حُزنه، كنتُ الثلاثةَ السعداء إلى حين، الغافلين الجالسين على رصيف المقهى، وكنتُ المرأةَ العجوز.

أصلُ السَّنطة

مرَّتِ عليَّ السنواتُ الطوالُ ساكنةً، كأنها لم تمر. ولم يزل كلامُ أمى يطنُّ فى سمعى وصورتها تمثل أمامى كأنهما كانا صباح اليوم، لكثرة ما أرى مشهد رحيلها فى خاطرى. كنت فى العاشرة من عمرى، فى صيف العام سبعة وتسعين وتسعمائة وألف، حين اضطرب بيتنا الهادئ لأمرٍ لم أدركه إلا حين سمحوا لى بالصعود إلى الطابق الأعلى، حيث كانت أمى قد احتجبتْ عنى واستعصمتْ فى الغرفة البحرية، أو بالأحرى كانت تستعد هناك لموتها.. يومها، صاحتِ الخادمةُ التى أناديها خالتى "زينة" من شباك الغرفة، قائلةً لأبى الجالس بجوارى أمام باب البيت: الست فاقت، وعايزة تشوف الولد.

من يدى أخذنى أبى بكفِّه الكبيرة التى شعرت ساعتها بارتجافها، وشارداً سار بى بلا كلام فأصعدنى الدرج الهابط من عند أمى. لما دخلتُ عليها بعد أسابيع من منعى عن زيارتها، راعنى نُحُولُها واصفرُارها المفاجئ، وحين رأتنى انتفضتْ فى وسط سريرها وراحت ترتعد بشكلٍ أخافنى، فحجب أبى عينىَّ بجلبابه حتى مَرَّت عليها النَّوبة. كانت الخالةُ "زينة" لحظتها تبكى بعينين حمراوين، وكانت حرارة الغرفة شديدةَ الوطء والأنفاسُ فيها خانقة. والأحوالُ مُحيِّرة. حين استفاقت أمى بعد دقائق لا عدد لها، قرَّبونى منها. فلما لمست كَفّى أردتُ احتضانها، لكن ارتعاشُها صدَّنى، وكلامُها:

- معلش يا ضناى، هاسيبك واروح لربنا.

- ليه..؟

- هوَّه عايزنى فوق.

- أنا عايزك أكتر. وممكن ربنا ياخد أى أم تانية، ويسيبك ليا.

لم ترد علىَّ لأن نوبتها الأخيرة غمرتها بقوة. فخرج بى أبى من الغرفة وأنزلنى السلم مسرعاً. وعند منتصف الدرج الهابط علا عويل الخالة زينة وانفجر صراخها فزلزل جنبات البيت. ورَجَّ الكون. فى ليلة المأتم وفى ليلة زواج أبى بالخالة زينة وفى الليلات التاليات. انشغلوا عنى. فكنت أجولُ أحياناً حول البيت وأحياناً أسكن فى مكانى خائفاً حتى يغلبنى النعاس، فأصحو مع الشمس لأجد فى الغد ما كان أمس.

فى ليلةٍ من ليالى الإهمال لى والسهو عنى. سريتُ إلى طرف القرية حيث السنطة الكبيرة القائمة وحدها فى فراغ تلك البقعة، واعترانى هناك الحنينُ حتى نمت تحت الشجرة العتيقة وفى حضنى بعض أوراقها الجافة، التى كانت متناثرة حولها فجمعتها إليَّ آملاً أن تُجمِّعنى. وبين صحوى والنعاس جاءنى فجأةً خاطرٌ لا أدرى مصدره، يخبرنى بأن شجرة السنط هذه، أمى. لم أُحدِّث أحداً بهذه الخاطرة طيلة السنوات التالية، لكننى كنتُ أزداد مع مرور الوقت يقيناً فى صدق الخاطر. وقد تأكَّد عندى ورسخ مع كثرة ما سمعته من مزاعمِ أهل قريتنا وتهامسهم أمامى، ثم قولهم صراحةً، إن جدّنا الأول مدفونٌ واقفاً بقلب ساق السنطة. فاعتقدتُ ثم آمنتُ مع إدمان الاعتقاد، بأن الذى دُفن عقب الوفاة فى المقبرة هو جسم أمى الذى صار بالموت جثماناً، أما روحها فباقيةٌ فى قلب "السنطة" وكامنة فى ساقها وفروعها والأوراق، اليانعة والمتساقطة، على نحوٍ خفىٍّ لا يعلمه إلا الله.. ولا يشعر به إلا أنا.

عندما اشتدّ عودى واستطال سألتُ قومى عن أصلِ "السنطة" فقال

الأقاربُ إنها أصلُ القرية، زرعها الجدُّ الأول وكان يسكن تحتها من قبل بنائه البيت المهول الأول الذى اندثر ثم صارت أحجاره أحجار أساس لكل بيوت قريتنا التى قامت على مبعدة من السنطة، توقيراً لها. خطيبُ القرية، نحيلُ البدن متهالكُ الأركان، كان يؤكّد لنا فى ختام خطبة صلوات الجمعات أن روح جدنا الأعلى تسكن قلب الشجرة ويدعو لهما بدوام البقاء، ثم يؤكد أن قوله هو الحقُّ الذى لا جدال فيه ولا ينكره إلا جاحد، ثم يؤكد أن المتشكك فى تلك الحقائق المعلومة بالضرورة أو المستهين بها، هو لا محالة كافرٌ.

***

قريتنا المنسية البائسة اسمها "نجع السنطة" ويسكنها الآن نحو تسعين شخصاً تقريباً، معظمهم توائم لا يشبه أحدهم الآخر، والظاهر من بطون الحوامل أن سكان القرية سوف يزدادون عدداً فى مستقبل الأيام، مالم تدخل القرية حرباً نظامية مع أىّ قريةٍ مُجاورة. فقد كان عددهم فى سنة ستين من القرن الماضى ستين، وفى بداية الثلاثينيات كانوا ثلاثين، وكانوا فى العشرينيات عشرين.. هذا بعد إحصاءٍ دقيقٍ للأحياء، وتجاهل تام لعدد قتلانا فى حروب القرى.

والرأىُ منعقدٌ بين أهل قريتنا، على أن أصلهم جميعاً هو هذا الجدُّ الأول الذى جاء هنا حسب قول بعضهم، سنة واحدٍ وتسعمائةٍ وألفٍ للميلاد أو للوفاة. وقد وفد إلى هذا الموضع من الساحل الشمالى للصحراء الأفريقية، وهو ساحل بحرٍ أزرق مشوبٍ بالاخضرار كانت

الناسُ تُسميه البحر "أبيض اللون" مع أن الأبيض ليس من جملة الألوان.

وبعض مشايخ القرية المخرِّفين يؤكدون غير الأكيد، فيقولون إن الجد جاء من قلب القارة السوداء، فلما استقر هنا تآكلت شفتاه اللتان كانتا غليظتين، من كثرة ما عضَّهما أسفاً على عمره الذى ضاع هدراً فى جوف الغابات حيث عاش محروماً من الخيال، ولم تكن تزوره هناك أحلام المنام. فلما وصل إلى موضع قريتنا نام وراودته الأحلام، لاسيما بعدما ثار خيالُه بعد وقوفه نهاراً كاملاً قبالة البحر القريب. وفى الأيام التالية لاحظ الجدُّ أن اسوداد بشرته يستحيل رويداً إلى اللون القمحى، فأحبَّ لونه الجديد وقرَّر زراعة القمح، وشرع فى ذلك فور غرسه بذرة السنطة. وهذا الكلام عندى، هو بلا خلاف تخريف.

لم تطمئن نفسى إلى ما سمعته من كلام الحكماء والمخرِّفين والخطيب، وتطاولت علىَّ أفكارى واستدام عندى التساؤلُ وسترته فى نفسى زمناً، ثم استعلنتُ بالاستفهام. أخبرنى خالى، الخالى ذهنه من هموم القرية، أن أصول قريتنا مجهولةٌ تماماً وكلُّ ما يُقال عنها هو تقوُّلٌ، لا نصيب له من الصحة. وضحك وهو يقول إن كل ما يزعمونه أهلونا وآباؤهم عن أصل السنطة، هو كلامٌ كالنِّكات. سألته: فما سر الأصل؟ فضمَّ كتفيه وزمَّ شفتيه ثم انفجر بقهقهة عالية حتى فَغَر فاه وبدت نواجذُه. متآكلةُ الحواف، ثم هدأ وعاد إلى الإفادة وأفاض قائلاً: ليس هناك أصلٌ ليكون له سرّ، فكل ما كان لا يصدق عليه إلا قولُ الإمام مالك، فى حقيقة استواء الله على العرش.. سألته عمّا قاله الإمام، فعاد

بظهره إلى الوراء كالعلماء العارفين بالمستور، وقال: قال الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ.

لم أحب كلام خالى، الخالى من روح المعنى.

***

لم تطمئن نفسى إلى أى تفسيرٍ واستدام عندى التساؤلُ فجاوبنى عمى المستعمى، مع أن بصره حديد، وصرَّح لى بسبب ادعائه العمى وهو البصير، بقوله: لا يميل الناسُ إلى مَنْ يرى، فهو يُشعرهم بأنهم يرتعون فى غيابة العمى، وهم يلتذّون بما هم فيه ما داموا عنه يتغافلون، ويحبّون أن يكونوا مُتغافلين عن أنهم متغافلون ومُغفَّلون ومُغلّفون قلوبهم بالقصدير.. قلتُ: ولماذا تحبُّ الناس هذا الحال؟ قال: السؤال نصف الإجابة، وسؤالك مُبشّرٌ بغفلتك وعماك المستقبلى ودخولك فى غمرة الجمهور.

فى ذاك اليوم قمتُ من جوار عمّى المستعمى، أكثر حيرةً من الحال الذى جئته به، ولم أحب بعد ذلك أن أستفهم منه عن أى شئ كيلا تزداد حيرتى بأجوبته.. ولكننى فى يوم اشتد فيه الحرُّ. كأن هواء الأرض صار يهبُّ علينا من جنبات الجحيم. رأيت عمى هذا يضرب بعصاه الأرض ويجوس خلالَ ديارِ القرية محفوفاً بحفاوة أهلها. ومُبتسماً بسخرية العميان والطرشان والبرصان. لا أدرى سر سريانى خلفه يومها. كأننى كنتُ مدفوعاً بوهج نهاية الحياة وقيام قيامة الناس. أو واقعاً تحت سطوة الأسئلة. مشيتُ وراءه دون أن ينتبه. وتتبّعتُ خطاه من حيث

لم يرنى حتى فارق بيوت القرية فوصل منفرداً إلى موضع "السنطة" وهناك ارتمى تحت ظلها وراح يرمى عصاه لأعلى ثم يلتقطها قبل أن تقع على الأرض، وهو يضحك كالأطفال بصوتٍ عالٍ.. حين رآنى عقد حاجبيه كالقضبان. ونهرنى قائلاً بلفظٍ فصيح:

- كيف جئت إلى هنا؟
- ترسَّمتُ خطاك ومسراك.
- لمَ ؟
- أملاً فى قبسٍ من هُداك.
- ومن خايلك بهذه الأوهام؟ ليس عندى هُدى، وقد تعبتُ من هَدّ الأركان.
- يا عمى. الأركانُ كلها مهدمةٌ من قبلنا، وقد تبقى من بعدنا كذلك. فلا تبخل على ابن أخيك ببعض ما عندك، لعله ينجو بالرؤية مثلما نجوت باصطناع العمى.
- ما عندى شىء لك. اذهب إلى زوجة أبيك فربما تجد عندها حشو أمعائك، أو اذهب إلى أبيك المعتدى على حق أخيه فى الميراث، فربما تجد الأجوبة.
- لا شأن لى بمنازعتك مع أبى على قطعة الأرض البور المليئة بالصخور. ولو الأمر بيدى لتركتها كلها لك، على أن تعلِّمنى مما علمتَ رُشداً وتدلَّني بحكمتك البالغة على أصل قريتنا وقصة الجد الأول، وسر هذه السنطة.
- صحيح. أنت لا ذنب لك فيما فعل أبوك، لكن ظُلمه لى هو خيرٌ لك.

ومع ذلك، اجلسْ بجوارى فسوف أُبلغك النبأ اليقين.

ابتهجتُ، لظنّى أن عمى سوف يفيض علىَّ من مخبوء علمه، لكنه قال كلاماً مطولاً، مُلخّصه: هذه السنطة عمرها ألف سنة، ولم تسكنها أرواحُ البشر قط. لأن الروح هواءٌ، والهواء لا يسكن فى جماد وإنما يحتاج الفراغ ليتحرَّك فيه ويهنأ بالسُّكنى. والجدُّ الأول قصّته مريعةٌ ولذلك يسترونها، فقد كان عبداً أَبَقَ من سيده وانزوى هنا حيناً من الدهر، حتى حَنَّ للعبودية فعاد باختياره إلى سيده السابق، ناوياً الندمَ وطلبَ الصفح، وحين وصل وَجَدَ الجدُّ الموضوع قد صار خرباً، وعرف أن سيده السابق قد هلك فى الحرب وانهدم بيته. وتحت ركام البيت المتهدّم، وجد الجدُّ بالصدفة رَقَّ عبوديته مُلقى تحت حجر، فمزّقه، وأحرق الختم الذى كان مدموغاً به. فصار بذلك كالأحرار. لكنه احتار من بعد ودار فى الأرض على غير هدى، وتجوَّل فى الأنحاء فلم يجد لنفسه سكناً ولا مأوى ولا موئلاً ولا سيداً أعلى، فعاد إلى موضع قريتنا هذه وسكن وحيداً حيناً ثم تزوَّج بامرأة أرملة، وعاش عبداً لها حتى مات. وأهل قريتنا اليوم، كلهم فى الأصل أولاد الأرملة. الوارثون من الجد هذا الحنين إلى نعيم العبودية الجالبة لراحة البال. وكان أهلونا الأقدمون فى مبتدأ أمرهم قد عبدوا أمهم حتى صارت جدّة، فلما ماتت كفروها وكفروا بها. ثم خافوا من أنفسهم فبحثوا عمّن يستعبدهم، ولمّا لم يجدوا عبدوا السنطة ثم عبدوا التراتيل التى ألَّفوها فى تقديس السنطة، ثم عبدوا المرتِّلين.. وتلك هى، يا ابن أخى، خلاصة القصة.

سِرُّ الكَحُول

لا أحد يدرك سرّ الارتباط القوى بين "الباشمهندس شحاته" ورفيق دربه النحيل "مصطفى كابوريا" لأنه سرٌّ لا يخطر كثيراً على البال. والذين يظنون أنهم أذكياء يعتقدون أن ما بينهما من ارتباط لا ينطوى على أى سرٌّ، فالأول منهما مقاول يبنى شواهق مخالفة لقوانين البناء، والآخر "كحول" يوقع عقود بيع الشقق للمشترين باعتباره صاحب العقار القديم والأرض، ومالك العمارة، والشريك الأساسى فى شركة المقاولات المسماة الآن "الفتح" وكان اسمها من قبل "مجموعة النور للمقاولات العمومية" وكانت قبل هذا القبل تسمى "العملاق للمقاولات".. وكلها تسميات على غير مسمى، ولا غرض لها إلا التهرب من الضرائب والمسؤولية القانونية إذا انهار البناء، لا قدَّر الله.

الباشمهندس شحاته لم يتم تعليمه، لكنه بشهادة الجميع رجل إنجازات، وذكى، ويحب عمل الخير. أما مصطفى كابوريا فقد تخرج فى كلية التجارة ولم يتعلم فيها شيئاً مفيداً، ولما انعدمت أمامه فرص العمل أتاح له صاحبه القديم أن يعمل معه كحولاً. وأن يُسكنه فى الطابق الأخير من كل عمارة مخالفة، لتلافى عمليات الإزالة، لحين الانتهاء من بيع الشقق للناس وسُكانهم فيها، فتصير إزالة المبنى الآهل بساكنيه مستحيلة.

هما يجتمعان عادةً كل ليلة فى مكتب المقاولات المؤقت، فى حدود الساعة التاسعة مساءً، ويبقيان معاً حتى وقتٍ متأخر من الليل. ولا يلتقيان فى النهار إلا لتوقيع عقد تمليكٍ لمشترٍ جديد، أو فى المناسبات الأخرى نادرة التكرار مثل ولائم العيدِ وحفلٍ الإفطار الجماعى فى

منتصف شهر رمضان.. وهى مناسبات ينفق فيها "شحاته" ببذخ ويعطف على الفقراء باللحوم والمنح المالية.

***

التقيا الليلةَ كالمعتاد بالطابق الأول من آخر العمائر المخالفة، حيث المكتب المؤقت للشركة الوهمية، ولم يكن أحدٌ معهما كالمعتاد، وكالمعتاد تخلَّلت الجلسة فتراتُ صمتٍ قد تقصر أو تطول.. فى هدأةِ صمتٍ، سرح المقاول بخاطره وسرى فى وفرة مسمياته، فوجد أنه عند العاملين تحت إدارته "الباشمهندس" وعند المتعاملين معه "الحاج" وعند قدامى معارفه "شحتة الملقاط" وعند زوجته الأولى أيام فقره "الموكوس" وعند الزوجة الحالية التى لا يحبها "حبيبى" وعند فتياته الخليعات "حمادة" وعند موظفى الحى وتماسيح الحكم المحلى "أحمد بيه الشحات".. أين هو فى هؤلاء؟ سأل جليسه وقد انتصف الليل:

- هوَّه أنا مين فى كل دول يا تيفا؟
- إنتَ زى الفل..
- الحمد لله، بس أنا مين فى كل دول؟
- ياعمّ روَّق. مُش مهم تعرف، مفيش حدّ عارف حاجة أصلاً.
- لأ يا تيفا، لأ .. فيه ناس عارفة نفسها كويس.
- زىّ مين يعنى؟
- زىّ .. مُش عارف، بس لازم يكون فيه ناس عارفين، لازم ياتيفا.
- أيوة يعنى، عارفين إيه بالظبط؟!

- مُش عارف. ما علينا، إحنا ليه فتحنا أم الموضوع ده، ده مالوش آخر.

- مُش عارف. بس الصراحة، الحشيشة دى تحفة.

- يا سلام، لسه واخد بالك دلوقتى. لعلمك دى قندهارى، زيت يعنى، جت مع واحد حبيبى من السعودية.

- السعودية .. هوَّه أنت رُحت العُمرة تانى؟

- عُمرة إيه ياتيفا، إنت مش واخد بالك.

- واخد بالى من إيه يا شحتة؟

- يووه، يا أخى من الموضوع اللى كُنَّا بنتكلم فيه مِنْ شوية.

- هوَّه كُنا بنتكلم.

- أيوة يا تيفا، كنا بنقول حاجة مهمة.

- إيه ده، هوَّه لسه فيه حاجات مهمة.

- بقولك إيه يا تيفا إنت شكلك كده فصلت، قوم روَّح أحسن. خلّى محسن، السواق الجديد بتاعى، يوصَّلك.

- يوصَّلنى فين، أنا ساكن هنا فى آخر دور.

- آه، صح. خلاص اطلع نام، أنا عايز أقعد مع نفسى شوية.

- ماشى، سلام..

***

ببطء المسطولين، قام مصطفى ليصعد إلى الطابق الثامن عشر، حيث شقته الوحيدة الآهلة لحين مجيء بعض السكان، وحيث تنام الآن

زوجته السمراء الفاتنة "سلمى" آمنة.. استغرق صعوده قرابة نصف ساعة، ترنَّحت خلالها خواطره مع خطواته، مع وقفاته المتوالية لالتقاط الأنفاس بجهدٍ جهيد.

كانت أفكاره المتفرقة الدافقة أثناء صعوده، تندفع بلا رابط أو ضابط، ولا يمكن التعبير عنها بدقةٍ إلا بالمفردات التى همس بها سراً لنفسه قائلاً: العمارة دى فيها حسنةً حلوة، يمكن تدخل فى خمسة ستة مليون.. حلال عليك يا صاحبى.. أنا نصيبى ملاليم، كل عقد باخد عليه خمس تلاف جنيه.. بس حلوين.

ليه شحتة ما يركِّبش الأسانسير قبل ما يبنى العمارة.. آه يانى.. كُل ده سلم.

سلمى مراتى، بنت العبيطة، بتقوللى إن شحتة عينه منها وبيبص لها بطريقة مُش كويسة.. بتستهبل.. هو يعنى ناقص نسوان، ولاَّ هىَّ يعنى جميلة الجميلات.. كلام النسوان يودِّى فى داهية، فعلاً .. هىَّ عايزانى أسيبه واشتغل لوحدى وأبقى مقاول.

ياه، أخيراً، فاضل دور واحد، الواحد شكله عجِّز.. أوِل حاجة هاعملها دلوقتى، أصحِّى سلمى.. ويمكن ألاقيها صاحية.. أيوة، ونسهر بقى.. بكرة الضهر فيه عقدين، يعنى فيه عشر تلاف جنيه جايين.. حلوين.. بت يا سلمى.

***

خلال النصف ساعة الصاعدة من الطابق الأول إلى الثامن عشر، كان شحتة يحادث "سلمى" سراً، وكان هذا نصّ المكالمة بينهما:

- مساء الخير يا سلمى.

- مساء النور يا شحتة، خير، مصطفى نسى تليفونه عندك تانى؟

- لأ. بس هو لسه طالع حالاً، قُلت أقولّك، واطمّن عليكى بالمرة.

- طيب، شكراً.. هاقوم اسخّن له الأكل.

- لحظة بس، إنتى ليه بتهربى منى كده دايماً.

- عاوز إيه يا شحتة؟

- إنت عارفة..

- يا معلم شحته عيب كده والله، وبعدين مصطفى صاحبك يعنى، ومن زمان كمان.

- ماشى، صاحبى.. بس أنا غاويكى أوى، ولولاكى ما كنتش شغلته معايا.

- إيه يا شحتة الكلام ده، طيب ما أنا كنت قدامك سنين وأيام، قبل ما يتجوّزنى مصطفى.

- كنت اعمى.

- وبعدين تيفا طيب، والله. وغلبان.

- واللهِ وأنا أغلب منه. وبحبّك يا سلمى، وبالعربى هاموت عليكى.

- يا سلام. وكل الستات اللى معاك دول، بيعملوا إيه؟

- ولا حاجة، كلهم أى كلام. أنا بحبّ واحدة بس، بس هىّ قاسية علىّ شويتين. ليه القسوة يا سلمى؟

- خلاص بقى يا شحتة، نكمل كلامنا بعدين، شكله كده قرّب يوصل.

- وأنا بقى إمتى هاوصل؟

- الصبر يا خويا مفتاح الفرج.

- ماشى يا سلمى، نُصبر علشان خاطرك.

- خلاص أهو وصل، مع السلامة يا شحتة.

- مع السلامة يا روح شحتة.

***

لم يعرف أحدٌ سرّ الارتباط القوى بين المقاول والكحول، إلا يوم باغتنا الزلزالُ الذى هزّ الشواهق وشقّقَ جنباتها.. لحظة وقوعه المروّع، المفاجئ، كان "مصطفى" جالساً على المقهى المجاور لمحطة قطار أبى قير، المحطة الأخيرة، وكان يستمتع بانتصاره على "مسعود النّنوس" فى لعبة الدومينو، ويستمع لتفسير كلمة كَحُول من "أسامة خُلخُل" رفيق صباه الذى كان يلتقط معه سرطانات البحر من حوافّ صخور البحر الحىّ، أيام كانت أبوقير منسيةً، وقبل أن تصير اليوم منسيةً ومنهوبةَ الأرض. كان "أسامة" الذى أصبح مُدرِّساً بائساً، يُخبره بأن كلمة "كَحُول" بحسب تعبيره: رائعة، وأصلها جميلٌ لأنها تعنى الثور الصغير الذى تكون عيناه مُكحّلتين بخطٍّ أسود شديد اللمعان، وجميلتين.. لما وقعت الزلزلةُ، جرى الجميع علىً غير هدى واندفع "مصطفى كابوريا، الكَحُول" إلى ناحية البناية المخالفة التى يسكنُ بطابقها الأخير،

ووقف هناك مع بقية المذهولين ينتظر الاطمئنان على زوجته الفاتنة السمراء.

لحظة وقوع الزلزال كان المقاول يُغلق من الداخل باب مكتبه المؤقت بالطابق الأول، وينهل من المتع السريرية التى لا حدود لها، فلما ارتجت الجدران وتدفق فجأةً نهرُ الرعبِ، طاش عقله فاندفع هو والسمراء الفاتنة "سلمى" إلى الشارع.. عاريين.


کهفُ بحری

ما جرى معى عجيبٌ، ولو قصصتُ بدء الحكاية ومُنتهاها فلن يصدّقنى معظم الناس، لكننى سأحكى، لعل واحداً منكم يكون له قلبٌ يُلقى السمع وهو شهيد، ولا شأن لى بالباقين:

عند طرف المنطقة المسماة اليوم باسم مثير للرثاء، وكان اسمها فيما مضى "كانوبيس" هناك ناحيةٌ بحريةٌ خاويةٌ فى غالب الأوقات، يمكن للناظر من عندها إن صَفَتِ السماءُ أن يرى فى المدى البحرى جزيرةً لا هى بالقريبة من الشاطئ، ولا بالبعيدة، الوصولُ إليها يحتاج إبحاراً لحوالى ساعة تجديف بقارب بطىء، أو عوماً لأكثر من ساعتين.

طالما وقفتُ هناك ساكناً، أرقبُ من موضعى المأمون على الشطِّ تلك الجزيرة الصغيرة، وأشطُّ أحياناً فأحلم بالذهاب يوماً إليها. مع دوام الحلم أصبح إلحاحاً لا يُردّ، ومع إدامة النظر اهتاجت الفِكَرُ فسألتُ الصيادين، عساهم يأتوننى بخبرٍ عنها أو أجد فى تجديفهم حولها الهُدى. فى البداية استغربوا سؤالى، ثم ترفّقوا بى فأفادوا بأن الجزيرة مهجورةٌ منذ الزمن القديم البطلمى، لأن المسلمين الغزاة الفاتحين الذين كانوا يحبون ركوب المخاطر، ما كانوا يميلون إلى ركوب البحر؛ فلما أهملوا الجزيرة ولم يقيموا فيها مسجداً، نسيها الناسُ.

بعدما امتدت بيننا خيوطُ مودّة، استخبرتُ من الصيادين عما تحويه الجزيرة فقالوا: لا شىء، إلا صخورٌ فيها تجاويف وحولها كائناتٌ بحريةٌ ملونةٌ تُكهرب الماء دوماً فتهرب من هناك الأسماكُ، ولا يحوِّم حول الجزيرة صيادون ولا صقور.. قلتُ لهم خذونى إليها فضحكوا، ولما ألححتُ قالوا اذهبْ وحدك إذا أردتَ الذهاب، واعلمْ أن السلامة ليست

فى الجلوس فوق الغمامة. لم أفهم مرادهم فاستفهمتُ، فقال أوسطهم: لا يُبحر للجزيرة إلا وحيدٌ طحنته وحدتُهُ حتى أدرك أن مقام البقاء، لن يتحقّق إلا بعد فناء الفناء.

***

فجرَ اليوم، صحوتُ من نومى مصحوباً بحماسة نادرة وخرجتُ من دارى قاصداً المستحيل الذى صار بالهمة ممكناً، وتأسيتُ بقول الشاعر الفاجر المتفاخر: ولى همةٌ من هَمّ صاحبها، أدركتها بجواد ظَهْرُهُ حَرَمُ.. ذهبتُ بلا زوّادة، ولم أقف إلا دقيقةً واحدةً على الشطّ وبعدها شططتُ فأبحرتُ بذراعىَّ وساقاى مغالباً الموج حتى غلبته، وكان إغواءُ التوغُّلِ فى البحر يغوينى بالتقدُّم وحيداً إلى هدفى الوحيد. فى منتصف المسافة الممتدة بين الشاطئ والجزيرة، شعرتُ بأننى فى سياحةٍ عروجيةٍ، وما هذا الموج إلا درجاتُ سُلَّم أرتقيه بروحى بعدما استطالَ قعودى، وبالأحرى سجوعى على الدِّمَن التى دَرَسَتْ بتكرار الرياح الأربعِ. حسبما قال الشيخ الرئيس.

وصلتُ إلى الجزيرة قبيل الضحى، فأضحى الحلم حقيقة تصرخ فى داخلى بصدقِ الرضيع قائلةً: الهمّةُ تقهر التوهُّم المسمَّى "مستحيل" وقد حال بينى وبين الشاطئ المدى والموجُ فكنتُ من جملة الناجين، الذين هربوا من زمرة الهالكين الواقفين على الشطوط الغابرة، الآمنة فى أوهامهم.. كذباً وزوراً.

***

حَوافٌّ الجزيرة حادةُ الصخور وجارحةٌ لمن لا ينتبه، كأنها تحذِّر الزوَّار من أخطار الشغف أو تذكِّر القادمين بالحكمة القديمة الخالدة: الغافلُ عن حَدِّ المسموح. هو لا محالة مجروحٌ.. بحرصٍ بالغٍ عبرت صخوراً لها شكل الإسفنج وليس لها ملمسه، فلما استويت على الرمال الممزوجة بنتوءات صلدة تعلو ببعض المواضع وتكثر فيها التجاويف. أُلقى فى روعى الكشفُ الأول. وبلا تمهيدٍ أدركتُ أن الماء أقوى الأشياء لأنه يجعل الراسخ كالمتفسِّخ، ويُحيل الصخور الصلدة إلى ما يشبه اللوف.

فى قلب الجزيرة وهدةٌ لا تزيد مساحتها عن سبعمائة مترٍ مربع. وحوافُها العالية عسيرٌ حسابُ مساحتها لاستتارها أحياناً بالمدِّ. والواقف فى ناحيةٍ منها لايرى النواحى الأخرى، لأن الصخور المجوَّفة ترتفع فتحول دون امتداد النظر فى الأنحاء.

الهواءُ ساكنٌ. سرتُ برفقٍ خطوتين، فى قلب الجزيرة، فدهمنى الكشفُ الثانى وأُلهمتُ أن الصخر يعوق النظر لأن الكثافة سببُ الحجْب والسخافة. ومَنْ أراد إدراك سرِّ الهواء فلابد أولاً أن يصير كالهواء. لأن الشبيه يدرك الشبيه. حسبما قال المعلم الأول. الذى تعلَّم من أفلاطون الإلهى ومن بعده تصدَّر وعلَّم.

جلستُ بوسط الجزيرة، تظلِّلنى شمسُ الضحى وتحوطنى المشاهدُ كلها.. الماءُ المحيط، الصخرُ المستسلم، الهواءُ المفرَّد عبر التجاويف، الرمالُ الأبهر منظراً من طحين الأحجار الكريمة.. أين الأحياء؟ لا أحد حولى من الناس أو الطير أو الشجر، كأننى فى البقعة الأولى الصافية عن الأكدار كلها، أو فى الناحية التى ابتدأت منها الحياةُ قبيل ابتداء

الحياة.. حيثما انعدمت الحياةُ، والموتُ؛ ساد الأنحاءَ الصفاءُ.. كان ذلك هو الكشفُ الثالث الأخير، الذى أُريته قبل انكشاف السرّ الخطير.

***

بُعيد الظهر طوّفتُ بالجزيرة مرتين، فلم أر فى المرة الأخرى غير ما رأيت فى الأولى، وظننتُ أن دائرة المشهد قد اكتملت. عندئذ تهيَّأت للرجوع إلى حيث أتيت، ناوياً العودة بعد يومين إلى هذا المكان الساحر لأهل الانتباه، وليس للغافلين فيه نصيب. فجأةً سمعتُ ضحكةً خافتةً أتت من الجانب الأيمن، حيث تعلو الصخور وتخفى بجوفها مغارةً لطيفة الاتساع، مفتوحةً على البحر، لا تكفى إلا لسُكنى "فرد" واحد.

تزحَّفتُ كسرطان البحر على سطح الصخور، حتى رأيتُ المغارة وساكنها. هو لم يلتفت نحوى أو هى لم تلتفت، وكأننى لم أفاجئه من حيث لم يحتسب، أو أفاجئها، وكان العجيبُ أننى لم أرتبك مما رأيتُ ولا ارتجفت خوفاً من ساكن المغارة، أو الساكنة، كأننى كنتُ أرى بقلبى وأتوقَّع اللقاء.

هيئته مهيبة. فيها رهبةُ عجوزٍ تخطَّت من عمرها المائة عام، وجلالُ شيخ نشأ فى النور شاباً وشاب فيه حتى صار كله أبيض. اقتربتُ متلطفاً فرأيتُ واحدةً من أقل غرائبه إثارة، إذ كان يجلس فوق سطح الماء أمام مغارته متمكناً، كأنه المستوى على عرش وثير. وكانت تطفو على صفحة الموج من حوله خيوطٌ دقاق، تتموَّجُ مع الماء وتلمعُ. بعضها معقودٌ معاً، وبعضها الآخر مفردٌ محلول. وبين الحين والحين يلتقط بأطراف أصابعه

من الماء خيطين، فيعقد بينهما ويعيدهما إلى الطفو، أو يلتقط ما كان معقوداً ومعقداً فيفكُّه ويباعد بين الخيطين، ثم يعيدهما برفقٍ إلى البحر فيتخذان سبيليهما على سطح الماء سَرَباً، بعد ما بُوعد بين طريقيهما. وعندئذٍ يضحك ضحكةً خافتةً، كتلك التى دلّتنى على موضعه المستتر.

اقتربتُ منه بخطى عنكبوتٍ يرتجف، وبخفوتٍ ألقيتُ السلام فردَّه من دون أن يلتفت عما يفعله. لما رأيته غير منزعجٍ من اقترابى منه، تشجَّعتُ وسألته إن كان رجلاً أم امرأةً، فقال: إنسانٌ.. سرحتُ بعينى فوق تجاعيد الموج، وساحتْ خواطرى فى آفاق المعنى العميق الكامن فى كلمته المفردة، حتى فهمتُ إشارته فعدتُ إلى مؤانسته بسؤالٍ عن تلك الخيوط، فقال: هى نياط القلوب.. أخرجنى الانبهارُ بعد إجابته عن إطار الوقار، وصحتُ فرحاً بما ظننته وقوع العين على العين فرفعتُ صوتى قائلاً بنبرة الابتهاج:

- أنت إذن من أهل الحلّ والعقد..

- وهل للحلّ والعقد أهل.

- نعم، هم حكماء الحكومات.

- وهل فى الحكومات حكمة.

- يا سيدى أو سيدتى، كيف يجوز الردُّ على سؤالى بسؤال .

- وأين سؤالك؟ لو سألتَ بعمقٍ لكنتَ قد قطعت نصف الطريق، لكنك بَعْدُ بعيد.

فهمتُ من إشارته أننى لم أحسن الحديث معه، ولولا الرفق الذى يزدان به حضورُه، ويتزيّن بنوره مجلسه السابح فوق الماء والهواء. لما كان

قد جاذبنى أصلاً أطراف الكلام، ولكان قد كفى نفسه مؤونة مجاوبة الجهلاء.. طيب، سأوقد فى ظلام النفس مصباحى لترى روحى سبيل الخلاص من ربقة الجسد، علّنى أستقبلُ من السماء المدد فأستطيع التحدث إليه وأتقن إلقاء السؤال.

ساعة الغروب انكشف لى بعض المستور، حين تهتّكتْ بالإشراق الحُجُبُ والستورُ، فاستطعتُ بعون العلاَّم الارتقاء إلى مستوى السؤال وقلتُ له إننى تجرَّدتُ منى، فأدركتُ حقيقة الحال. وعرفت أن ما يفعله هو سبب الشدّ والصدّ بين القلوب، فى عالم الصخب الدنيوى، وكل خيط من هذه السابحة من حوله هو مصير قلب سوف يحبُّ، أو يثوبُ من حُبٍّ.. فابتسم ونظر إلىَّ بعينٍ رحيمةٍ، ثم قال:

- بل كل خيط هو رمز لزمرةٍ من الناس، لا يُحصى عددهم. وهم بسبب ما أفعله يُحبون أو يُحرمون، على نحوٍ مخصوص، من دون أن يدروا سرَّ هذا السبب.

- فلماذا تضحك أحياناً. حين تحلّ ما انعقد بين قلوب المحبين.

- يضحكنى اندهاشهم من أحوالهم، حين ينظر أحدهم إلى الآخر بعد الهيمان والذوبان، فلا يجد محبوبه محبوباً. فيحتار. فكأنه أدرك أولاً سببَ اللهفة وسرَّ الأُلفة، حتى يجوز له استغرابُ سرِّ الوحشة وسببِ الاغتراب.

- هذا اللهو الذى تفعله بالقلوب، عجيبٌ.

- اللهو!

- عفواً. اغفرْ لى تخبُّل التعجُّل، فقد جنَّ الليلُ وأخذنى الدوار

لابتعاد الديار، فما عدتُ قادراً على انتقاء المفردات. ولا تؤاخذني، فإنني مأخوذٌ.

- مادمتَ قد عرفت ذلك. فاهدأ قليلاً إلى أن يطل عليك القمرُ المنير، فترى على ضوئه المعاني والكلمات.

- وهل ستبقى معي إلى ذلك الحين.

- سأبقى معك حتى يشرق فجرك. لأنك غامرت بالإبحار، وأردت استكشاف سرِّك و بقية الأسرار.

***

قُبيل الفجر جرى الكلام بيننا أو انساب كالماء. مجدَّداً. بعدما كنتُ قد تأدَّبتُ طيلة الليل بالطرائق الأربعة المعروفة: الجوع والسهر والصمت والخلْوة. فارتقيتُ رويداً وأنزلتُ الناس منازلهم، وعرفتُ كيف يجرى الكلامُ وتُصاغ الأسئلة. فجاوبنى حتى توسَّطت الشمسُ قلب السماء وساعتها فأشار إلىَّ بضرورة رجوعى الآن بسلام، وبلا أملٍ فى لقاءٍ جديد.. قال: لقاءٌ كهذا لا يكون لمثلك إلا مرةً فى العمر، فهذا يكفيك ويزيد عن احتمالك. ومكتوبٌ لك لقاءٌ آخر مع "فردٍ" آخر.

فى طريق رجوعى للشاطئ المؤقت، سابحاً، سبحتْ خواطرى فى الواردات التى تجلَّى بها هذا الإنسان، الذى أدركتُ بعد فيض الإشراقات أنه ليس رجلاً أو امرأة لأنه تحقَّق بالمقامين. المقام الأنثوى والمقام الأبوى، معاً، فصار واحداً من "الأفراد" الخارجين عن نظر القطب، الموَّكلين بإنفاذ الإرادة التى لا رادَّ لها فى العالم الأرضى وفق

تجليات الأمر والنهى. وعرفتُ بالإشراق عدة معانٍ دقيقة، منها معنى قوله "قلب العبد بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلِّبه كيف يشاء" معنى قوله" لا جُناح لمن غلبه الأمر المتاح" ومعنى قوله "البُعد والقُرب واحدٌ".. وعدة معانٍ أخرى، أدق وأرهف، لم تُقل.

قبل افتراقنا أخبرنى بأن فى الكون عباداً آخرين، غيره، آتاهم الرحمنُ رحمةً من عنده وعلَّمهم العليمُ من لدنِّه علماً، منهم ساكن السرداب.. وبشَّرنى بلقاءٍ سوف يجمعنى بهذا الساكن، فى وقتٍ مخصوصٍ، إنفَاذاً لأمرٍ كانَ قد قُدر.

ساكنُ السرداب

حين حطَّتْ الطائرة بى فى عاصمة السويد المسمّاة "ستوكهولم" لم أنتبه من غيبوبة غَرقى فى النوم، إلا مع احتكاك العجلاتِ الكبار بأرض مهبط المطار. فنظرت من كوَّة الشباك إلى جنبات المطار المُغطَّى معظمه بالجليد، وبالظلام، فوجدتنى كمن يحلم ولا يقدر على الفصل بين النوم والصحو. كنتُ قد أمضيتُ ساعات الطيران نائماً لأننى لم أذُق طعمَ النعاس العميق من قبلها بيومين، كنتُ خلالهما كلما غفوتُ أرى حُلماً مؤرقاً يُبقينى مُسهَّداً. أرانى أسيرُ وحدى فى سَرَبٍ دهليزىٍّ مهجورٍ، طويلٍ وخاوٍ، كأنه سردابٌ مسحورٌ لا أقدر على رؤية ما فيه، ولا أستطيع، إذ يسطع الضوءُ الباهرُ فى جنباته فيمنع العين عن الإبصار. ومن مكانٍ بعيدٍ بجوف السرداب، كان يصلنى صوتٌ هامسٌ يقول بلفظٍ عربىٍّ مبين: لا تحاول النظر بعينيك، لأنك لن ترى إذا انعدم الضوء، وإذا اشتدَّ وزادَ وجازَ الحدَّ.

فوق سُلَّم الطائرة استفقتُ وبهرنى لمعان صفحة الثلوج الجاثمة فوق الأشياء فى كل الأنحاء، وأثار استغرابى اسودادُ السماء وغياب شمسها مع أن ساعتى لا تخادعنى إذ تخبرنى بأننا الآن فى وقت الضحى. هنا، لا صباح ولا ضحى، لا غروب ولا شروق. والشتاءُ شاملٌ تامٌّ. ففى مثل هذه الأوقات من أواخر العام وبداياته، يعمّ الأنحاءَ الظلام طيلةَ الأوقات فلا يتعاقب الصباح والمساء، وليس ثمة إلا ليلٌ يمتد دوماً.. وفى امتداد الليل ويل.

فى اليوم الأول من زيارتى هذه، قيل لى إن شهور الشتاء تنعدم فيها الشمسُ، فتسود العتمةُ ويعمقُ الاغتراب والوحشةُ التى تقود الناس

للغوص فى قيعان نفوسهم ونقائعها، وتحدو ببعضهم إلى طلب الأنوار بالانتحار. فيُقدمون على ذلك من دون احتياج لإبداء اعتذارٍ أو تبرير لهذا القرار، لاشتهار هذا الحال بينهم. وقيل لى إن سُكان هذا البلد ضخام الأجسام، لأنهم أحفاد قوم أشداء كان اسمهم فيما مضى "فايكنج" وكانوا يروّعون البلاد الجنوبية المجاورة، لكن أحفادهم صاروا وُدعاء إلى حدّ التهيؤ للممات. ورجالهم دوماً حزنانون لأنهم محتارون من كثرة فراغهم وقلة ما يفعلون، ولكونهم لا يتعبون. ونساؤهم البيضاوات فاتناتُ الهيئة وحسناواتٌ مثل الحور، لكنهنَّ خالياتُ الوفاض من فنون الغنج. ومفلساتٌ من بدائع المداعبة وفنون الملاعبة ولطائف المشاغبة، التى تبدو معها غيرُ الجميلات والجميلات جميلات.. قلتُ فى نفسى ما خلاصته أن وقتى ضيقٌ، ولا شأن لى هنا بهاتيك النسوة الشمعيات ولا بهؤلاء الضخام من الرجال، ولا اهتمام عندى الآن باستدامة ليل الشتاء. واستيلاء الظلام على الأنحاء، والانتحار. فقد جئتُ لهدفٍ وحيد لن أحيد عنه ولا يصح أن يشغلنى عنه سواه، هو أن أطَّلع على المخطوطة العربية المحفوظة بمكتبة البلاد الملكية، فأعرفُ السرَّ المخبوء تحت عنوانها العجيب: كتاب سِرِّ الخليقة وصنعة الطبيعة.

بلا استراحةٍ ولا هدأة نوم، وبعد ساعات من وصولى وصلتُ إلى المكتبة العريقة. وهناك اندهشُوا من طلبى ولم يفهموه، لكنهم ترفَّقوا معى بلطفهم المعهود فأخرجوا لى المخطوطة العتيقة الملفوفة بالقماش المسمَّى قطيفة، فصفّق قلبى بين الضلوع فرحاً. تأمّلتها قبل القراءة، فوجدتُ حواف أوراقها قد تهرَّأت بفعل الزمن، لكن قلب الأوراق اقتدر

على مقاومة البِلَى والفقد، فبقيت المخطوطة منزويةً هناك بعد قرونٍ من كتابتها، ونامت فوق الأرفف آمنةً حتى سمعتُ بها، وتيسَّر لى الاهتداء إليها. وها أنا قد وصلتُ إليها أخيراً، وصرتُ على وشك الإبحار فوق موج صفحاتها بعدما استطال التشوقُ والسعى والانتظارُ.

بقيتُ بقاعة الإطلاع الملحقة بخزانة الكتب المخطوطة، سبعَ ساعات تامّات، غُصت خلالها فى أعماق المخطوطة فرأيتُ من العجب عُجاباً بأولها، وجدتُ هذا الكلام الغريب الذى سأنقل منه طرفاً فى السطور التاليات، ولن أُغيِّر منه حرفاً، لكنى سأوضِّح بعض الكلماتِ بكلماتٍ أضمُّها بين قوسين، عسى المعنى يقترب للأذهان ويلامس الأفهام، فيتضح من بعد الغموض ما كان من قبل وما سوف يكون مستقبلاً.

***

قال أبولونيوس (فى المخطوطة: بلنيوس) الحكيم، فى كتابه هذا: أقولُ لكم على إثر كتابى، وأصف الحكمة التى أُيِّدتُ بها، لتسمعوا حكمتى وتنفُذُ فى أفهامكم وتخامر طبائعكم، فمن اتصل كلامى بطبائعه فتحرَّكتْ، فهو كاملُ الطباع سليمٌ من الأعراض، نقىُّ النفس من الظلمة الحائلة بينه وبين طلب الحكمة.. ومَن لم تتحرَّك طبائعه من استماع كلامى، فإن ذلك من التباس الظُّلمة بنوره، وكثرة الغلَظ الحائل بين لطيفه وبين التصعُّد فى دَرَجِ الحكمة. كما حَالَ (يقصد: مثلما يحول) السحابُ المظلمُ بين نور البصر النيِّر، وبين الاتصال بأنوار الكواكب المضيئة.

أنا بلنيوس الحكيم صاحب الطُّلَّسْمات (جمع طِلَّسم، وهو مقلوب

كلمة: مُسَلَّط) والعجائب، أنا الذى أوتيتُ الحكمة من مدبِّر العالم، بخصوصية.. فأدركتُ كُلَّ ما غاب عن الحواسِّ الظاهرة، بالحواس الباطنة، التى هى الفكرةُ والفطنةُ والذكاءُ والهمَّةُ والنيّةُ.

.. إن كل شىء من الطبائع الأربع، التى هى الحرُّ والبردُ واللينُ واليُبسُ، والأشياءُ متصلةٌ بها وهى متصلةٌ بعضُها ببعضٍ كلها، تدور فى مدارٍ واحد. يجمعها نظامٌ واحدٌ. يدور بها فلكٌ واحد. فأعلاها متصلٌ بأسفلها وأدناها متصل بأقصاها، لأنها كانت كلها من جوهرٍ واحد، من نطفة واحدةٍ يجمعها طبعٌ واحدٌ لا اختلاف فيه. حتى عَرَضَتْ فيه الأعراضُ فتباينتْ أجزاءُ ذلك الجوهر، وتفرَّقتْ الخِلَق باختلاف تركيب الطبائع، ووقعتْ عليها الأسماءُ المختلفة.. وإنما تكلمتُ بهذا الكلام فى ابتداء كتابى هذا، ليكون مَن فهمه عالماً بجوامع العلم، فيستدلَّ بعلم ذلك على علمِ سرائر الخليقة، ويدرك منه صنعة الطبيعة.

والآن أُخبركم بسببى ونسَبى: إنى كنتُ يتيماً من أهل طوانة (بلدةٌ قديمة اسمها اليوم: تيانا) لا شىءَ لى (يقصِد: فقير مُعدم) وكان فى بلدى تمثالٌ من حجرٍ متلوِّنٍ بألوانٍ شتى، وقد أُقيم على عمودٍ من زجاج مكتوبٍ عليه بالكتابِ الأول (الخطِّ واللغة القديمة): أنا هرمسُ المثلَّث بالحكمة، عملتُ هذه الآية (العلامة) جِهاراً، وحجبتها بحكمتى لئلا يصل إليها إلا حكيمٌ مثلى. ومكتوبٌ على صدر ذلك العمود، باللسان الأول: مَن أراد أن يعلم سرائر الخليقة وصنعة الطبيعة، فلينظر تحت رجلىَّ.

فلم يأبه الناسُ لما يقول، وكانوا ينظرون تحت قدميه فلا يرون شيئاً.

وكنتُ ضعيف الطبيعة، لصِغَرى، فلما قويتْ طبيعتى وقرأتُ ما كان مكتوباً على صدر ذلك التمثال. فَطنتُ لما يقول فجئتُ فحفرتُ تحت العمود، فإذا أنا بسَرَب (سرداب) مملوءٍ ظُلمةً لا يدخله نورُ الشمس، وإن طلعتْ عليه تحرَّكتْ فيه رياحٌ لا تفتر (لا تهدأ) فلم أجد إلى الدخول إليه سبيلاً، لظُلمته، ولم يثبتْ لى فيه ضوءٌ (شمعة أو قنديل) لكثرة رياحه.

فضِقْتُ بذلك ذرعاً واشتدَّ غَمّى، فغلبتنى عيناى (بكيتُ) وأنا مهمومَ القلب متفكِّرٌ فيما لقيتُ من النَّصَب (التعب الشديد) إذ تخيَّل لى شيخٌ على صورتى ومثالى (يشبهنى تماماً) فقال لى: يا بلينوس، قُم فادخلِ هذا السَّرَب، لِتصل إلى علم سرائر الخليقة وتُدرك منه صنعة الطبيعة. قلتْ إنى لا أُبصر فى ظُلمته، ولا يثْبُتُ لى فيه ضوءُ نارٍ لكثرة رياحه. فقال لى: يا بلينوس، ضَعْ نورك فى إناءٍ صافٍ تحجب به الريح عن نورك..

فطابت نفسى عند ذلك، وعلمتُ أنى قد أدركتُ طِلبتى (مرادى) فقلتُ: مَن أنت، لقد مننتَ علىَّ؟ فقال: أنا طباعك التام.. فاستيقظتُ فَرِحاً، فوضعتُ نوراً فى إناء صاف (يقصد: خلَّصتُ روحى من مطالب البدن) كما أمرنى، ثم دخلتُ السَّرَب فإذا أنا بشيخ قاعدٍ على كرسىٍّ من ذهب، وفى يده لوح من زَبَرجدٍ أخضر، مكتوبٌ فى اللوح "هذا صنعةُ الطبيعة" وبين يديه كتابٌ مكتوبٌ فيه "هذا سر الخليقة وعلم علل الأشياء". فأخذتُ الكتاب واللوح مطمئناً، ثم خرجتُ من السَّرَب، فتعلَّمتُ من الكتاب علم سرائر (أسرار) الخليقة، وأدركتُ من اللوح

صنعة الطبيعة. وتعلَّمت علم عِلل (أسباب) الأشياء، وارتفع اسمى بالحكمة وعملتُ الطِّلمسات والعجائب. وعلمتُ مزاجات الطبائع الأربع وتراكيبها واختلافها وائتلافها. فأنا واضعٌ هذه الكتب لمن بعدى، كما وضعها لى مَن كان قبلى.. ولا يقرأ كتابى هذا أحدٌ من الناس، إلا ازداد علماً واستغنى عما فى أيدى الناس، وعن طلب شىء من الأشياء.

***

عكفتُ على المخطوطة لساعاتٍ، طويلاتٍ ساكناتٍ، وتنقَّلتُ بين أوراقها من مدهشٍ وغريبٍ إلى ما هو أدهشُ وأغرب، بلا مقدرة على إرجاء القراءة إلى غدٍ، أو اقتدار على إيقاف الدوار العاصف فى جوف عقلى.. بقيتُ أقرأ الصفحات مسحوراً، حتى صدمتنى عبارةٌ فى المخطوطة لم أستطع بعدها استكمال النظر فى هذا الكلام، المكتوبِ باليونانية منذ ألفىْ عام ومترجم إلى العربية منذ ألف سنة. ومع أن طول الأجلَ يُبلِّغ الأمل. إلا أن المخطوطة على الرغم من عمرها المديد، لم يقرأها من يوم كُتبتْ إلى يومنا هذا إلا بضعةُ نساءٍ أُحرقن قديماً، وبعضُ رجالٍ من خاصة الحكماء الذين انزووا عن بقية الخَلق بعد قراءتها، فعاشوا سعداء حيناً من الدهر.. "ثم انطوت تلك السنون وأهلُها، فكأنها وكأنهم أحلامُ" حسبما قال شاعرٌ قديم.

خرجتُ من المكتبة وفى داخلى تعصفُ معانى هذه العبارة التى قلبتْ دولتىْ قلبى وعقلى، بينما الشوارع الساكنة تعصفُ فى جنباتها رياحٌ مُحملة بقطع البَرَد الهائم فى الهواء. هذا هو ما يُسمى "الزمهرير"

الذى طالما سمعنا عنه، ولم نره، وطالما حكى عنه شعراؤنا المساكين وهم لم يعرفوه.. فى الفندق الكئيب الواقع على ناصية الشارع الكئيب، المطلّ على عرصة كئيبة: جلستُ وحيداً حتى سمعتُ صلصلة الجرس تتردّد فى صدرى أصداؤها وتدُكّ التراكيب، فعرفتُ أنها إشارةٌ صريحةٌ تخبرنى بأن أوان رجوعى للوطن الآن، آن .

نمتُ مُستسلماً مثل المساكين المغلوبين على أمورهم، كلها، وهِمتُ فى غيابى حتى طوّحنى النُّعاسُ إلى ناحيةٍ بعيدة فى اللاوعى الجامع بين الغفلة و الانتباه. وهناك، حيث تنعدم المسافاتُ سمعتُ صوتاً يهمسُ بالمُبهمات، ولما أصختُ السمع استوضحتُ قوله: ما كان مُرادك يستلزم الأسفار إلا للإسفار، أما المخطوطة التى جئتَ منْ أجلها فموجودٌ مثلها ببلادك، وهناك نُسخةٌ منها خُطَّتْ فى القرن العاشر الهجرى متوارية عن الأنظار فوق أرفف خزانة المخطوطات بدار الكتب المصرية بالقاهرة!.. هببتُ من منامى ،فزعاً، وتهيّأت للعودة إلى الديار وقد فاض بى الوفاضُ.

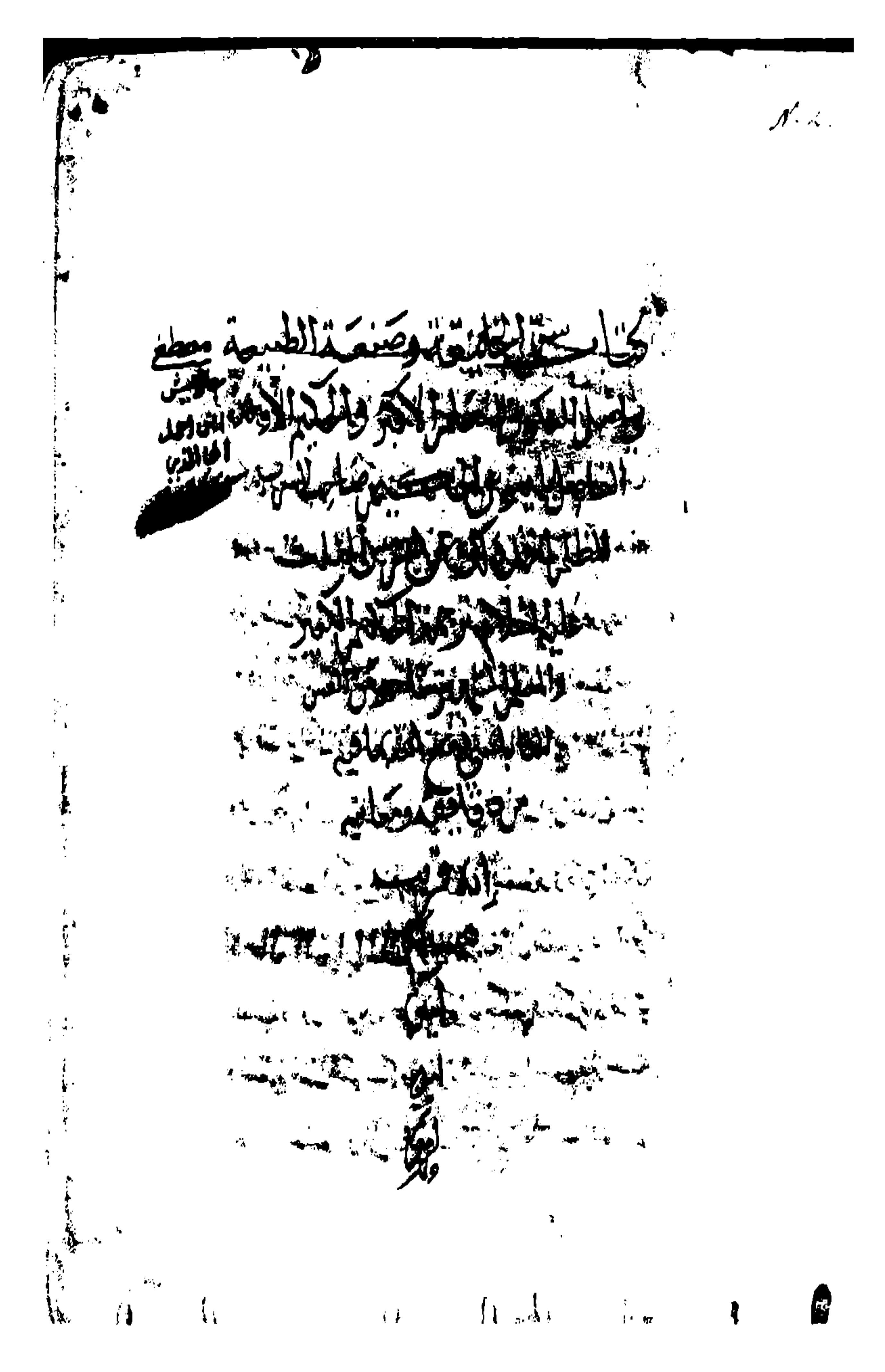
بعد ساعات لا حساب لها عندى ولا إحساس بها، عادت بى الطائرةُ إلى القاهرة، ولما خرجتُ من مطارنا الكبير المرحِّب على بوابته باجتياح اليهود لأرض مصر، عبر لافتة عريضة فيها تأكيدٌ للدعوى العريضة بالآية القرآنية "ادخلوا مصر إنْ شاء اللّه آمنين" رأيتُ فى قلب الزحام الصخب الذى يصرف العقول عن المعانى، ومن شأنه أن يُشوّش الأفهام، غير أن العبارة التى قرأتها فى المخطوطة كانت كالنور الهادى فى جوف ظلام هذا الازدحام.. ملايين المصريين تهدر من حولى حركتُهم فى

قلب المدينة المرآب، وفى قلبى وعقلى وروحى تدور كالإعصار تلك العبارة المِفتاح، التى طاشت بعدها السهامُ وطاحتْ الرواسخ.. العبارة التى يقول فيها ساكنُ السرداب بأواخر المخطوطة، ما نصُّه:

ما ذكَّرَ المذكَّرَ. هو ما أنَّثَ المؤنَّثَ.

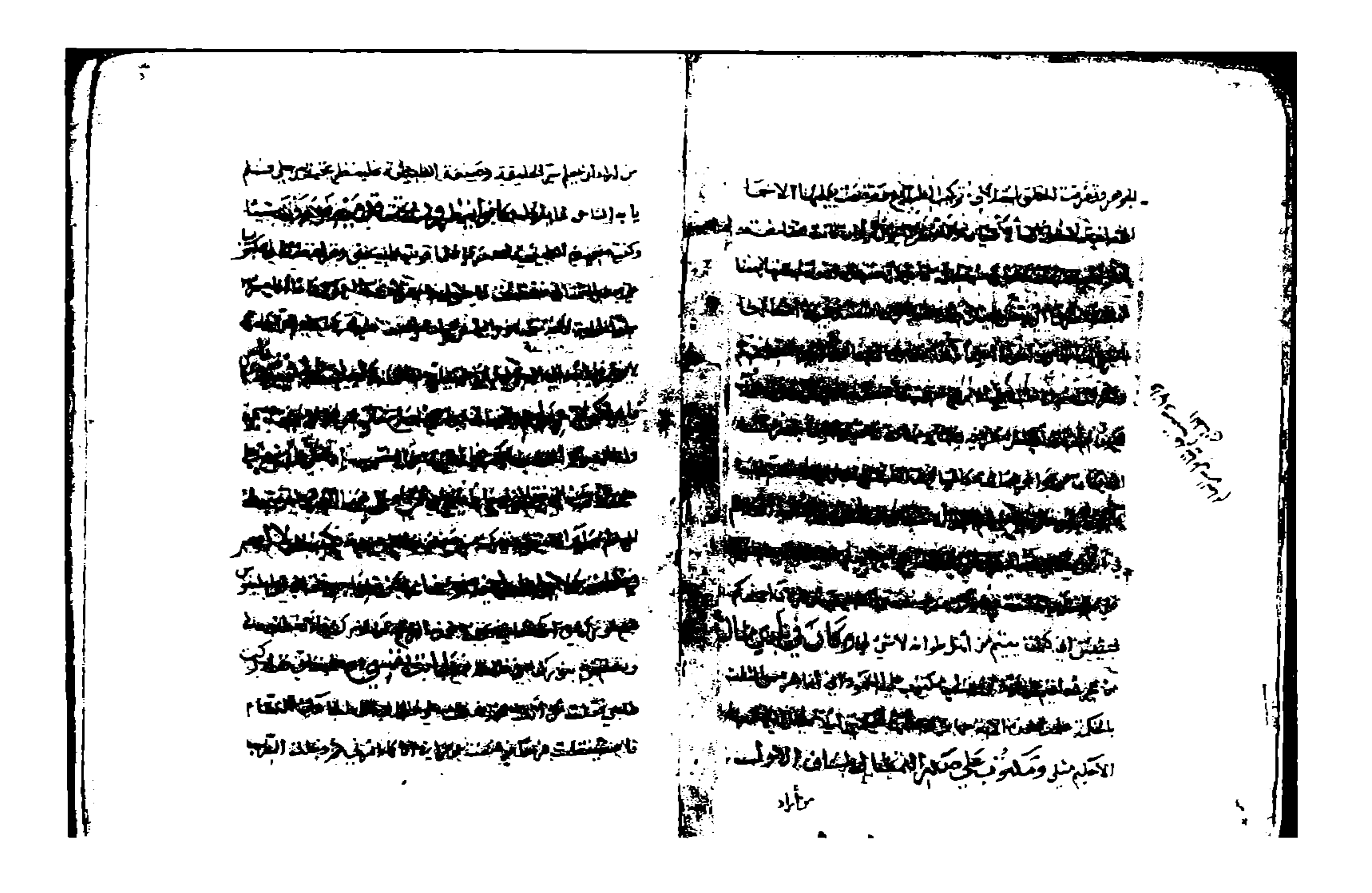
***

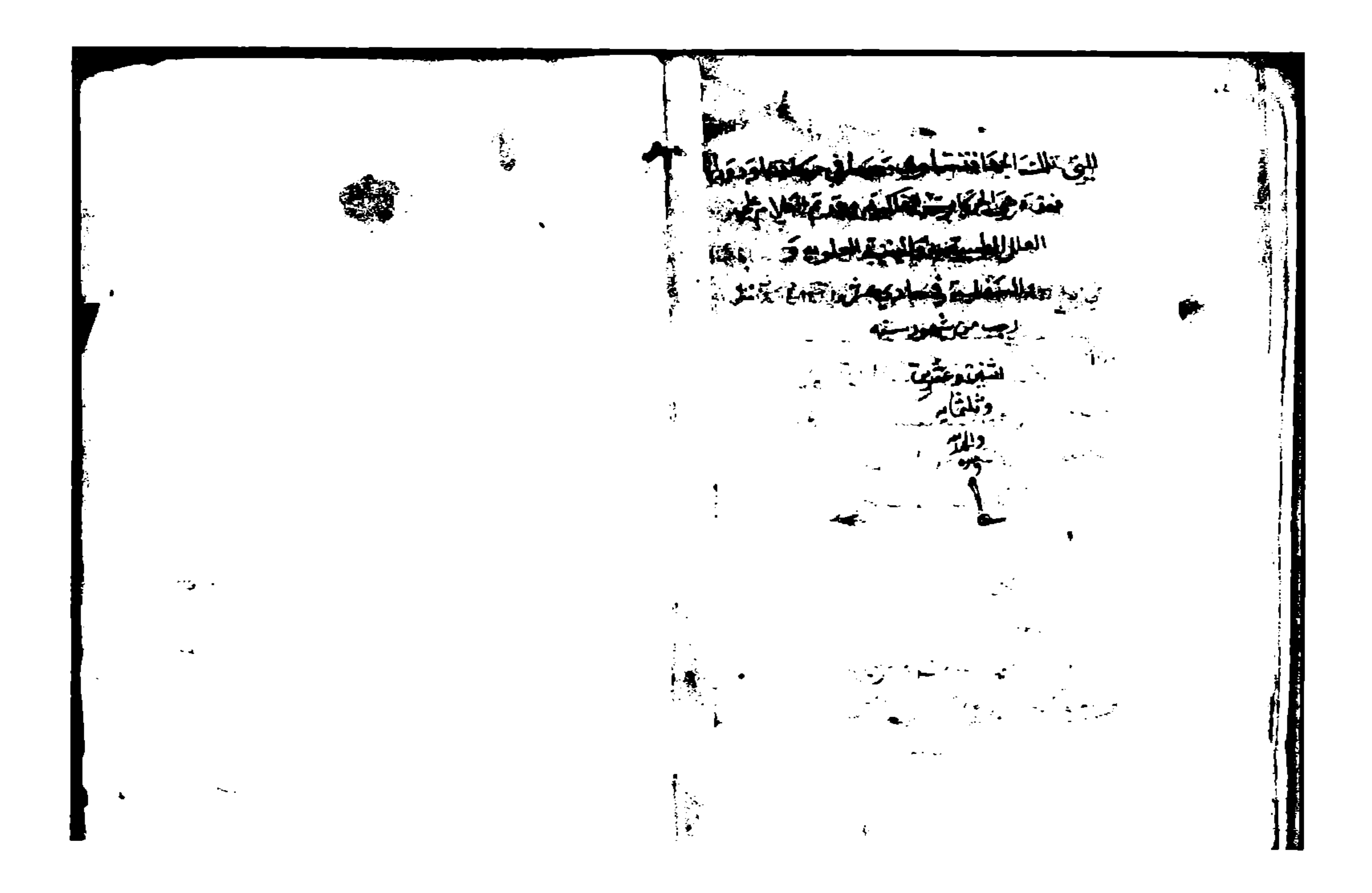
يا قوم، قد انتهت هذه القصة لكنها لم تكتمل، ولن .



المخطوطة المحفوظة بالسويد







[illegible]

[illegible]

العلل الطبيعية [illegible] العلوية [illegible]

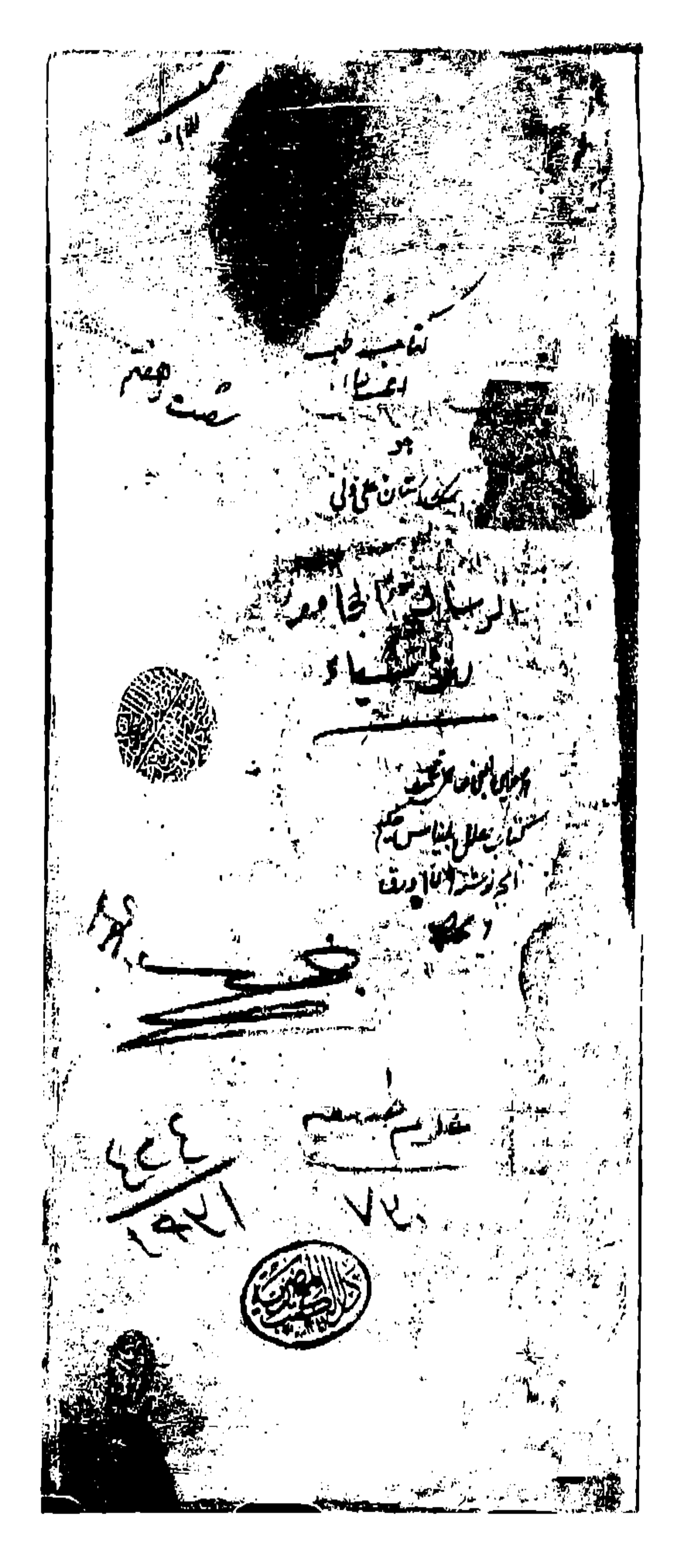
[illegible] السفلية [illegible]

رجب من شهور سنه

اثنين وعشرين

وثلثماية

[illegible]



المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم
اتوقف على كتابي [illegible]
ابتدأت بها استمعوا الحكمة لتستنفد [illegible]
وتخص طبايعكم فمن اتصل كلامي بطبايعه
تحركت طبايعه فهو كامل الطبايع سليم من
الاعراض الدنية نقي الجوهر من الظلمة
الحايلة بينه وبين طلب الحكمة فهو يستمد
بقوتها من قوة الكلام على قدر قوتها وقدر
اتصال ذلك الكلام بها فتتقوى بما استمدت
من لطيف الكلام على اقتباس الحكمة والنظر
في اختلاف تركيب الطبايع وعلل الاشياء
ومن لم تتحرك طبايعه لاستماع كلامي فمن
التباس الظلمة بجوهره وكثرة الغلظ الحايل
بين لطيفه وبين الشخص في درج الحكمة
كحالة السحاب المظلم بين نور البصر النير والاجرام(?)
بانوار الكواكب المضيئة والآن اسمي لكم [illegible]
لتكونوا في حكمتي [illegible]
نفسي الحكيم [illegible]
[illegible]

صنعة الطبيعة انا بلينوس الحكيم صاحب
الطلسمات والعجائب انا الذي اوتيت
الحكمة من تدبير الخالق وخصوصيته ايتلفت
مع طبيعة روحانية لطيفة سلكت من
الاعراض الدنية فقويت ونفذت لطافتها
فادركت كلما غاب عني الحواس الظاهرة
بالقوى الباطنة التي هي الفكر والفطنة والذكر
والحجة والنية وادركت بحواسها الظاهرة
كلما وقعت تحتها من الالوان والطعوم والارواح
والملامس والمذاق ولم يبق شيء من الخلق
الروحانية اللطيفة النورانية ولا الغليظة
الثقيلة الجسدانية الواقعة تحت الحواس
الظاهرة القوى والباطنة الا ادركت طبيعته
وخليقته وخلقته وانفذ بحالها(?) منه
بلطافته واعتدالها لقوى الجسد الى الغليظة
التي هي ضده [illegible] فاسمعوا
بما [illegible] ثم اعلموا ان كل شيء من الطبايع
الاربع التي هي الحرارة والبرودة واللين واليبس
والطبايع [illegible] كل شيء وكل الاشياء متصلة
بها وهي متصلة بعضها ببعض كلها تدور
في [illegible] نظام واحد يدور بها

فلك واحد خاعلاها متصل باسفلها وادناها
متصل باقصاها لانها كلها كانت من جوهر واحد
من نطفة واحدة يجمعها طبع واحد لا اختلاف
فيه حتى عرضت فيه الاعراض فتباينت اجزاء
ذلك الجوهر و تفرقت الخلق باختلاف
تركيب اجزاء تلك الطبائع و وقعت عليها
الاسماء المختلفة لاختلاف الاعيان والصور
والجواهر وان كانت مختلفة بالتراكيب فانها
متصلة منفصلة بالاختلاف والايتلاف فانها
بعضها بعضا منتقلة بعضها بعضا مستدعية
اشكالها باتصالها وايتلافها بها و دافعة
اضدادها بخلافها بهذا تبيين العالم بمعرفة
اصول الطبايع واما وصفت علم تقابل
الطبايع الاربع وتماثلها بالايتلاف والاختلاف
ليكون علم ذلك اذا بان تقلا فيه وتماوتا
له فيكون عالما بتصريف الكنايات عن جواهرها
وتجليا لما ليعرف الطبايع الاربع حينئذ هو اقوى
على علم علل الاشياء وانما تكلمت بهذا الكلام في
ابتداء كتابي هذا ليكون من يريد علما بجوامع
العلوم فيستدل بذلك على علم سراير الخليقة
ويدرك منه صنعة الطبيعة والان اخبركم

اخبركم بنفسي و بنسبي اني كنت يتيما من اهل طوانة
لا شي لي وكان في بلدي تمثال من حجر قد اقيم على عمود
من خشب مكتوب لنحوه تمثال من زجاجة قد
اقيم على عمود من حجر انا هرمس المثلث بالحكمة
عملت هذه الاية جهارا وحجبتها بحكمتي لئلا يصل
اليها الا حكيم مثلي و مكتوب على صدر التمثال
باللسان الاول من اراد ان يعلم سر الخليقة
وصنعة الطبيعة فلينظر تحت رجلي فلم يأبه
الناس لما يقول وكانوا ينظرون تحت قدميه
فلا يرون شيئا وكنت ضعيف الطبيعة لصغري
فلما قويت طبيعتي وقرأت ما كان مكتوبا على
صدر التمثال فعقلت لما يقول وحفرت تحت
العمود فاذا السرب مملوء ظلمة لا يدخله النور
لو ان طلعت عليه الشمس تحرك فيه الرياح لا تنقطع ولم
اهتد الى الدخول اليه سبيلا بظلمته ولم يثبت
لي فيه ضوء نار لكثرة رياحه فضقت ذرعا
لذلك واشتد غمي فغلبتني عيناي وانا مهموم
القلب فلما نمت لقيت من النصب اذ تجلى لي
شيخ على صورتي ومثالي فقال لي يا بلينوس قم
فادخل هذا السرب لتصل الى علم سراير الخليقة و
يتيسر لك منه صنعة الطبيعة قلت لا ابصر في ظلمة

وضعها في آخر كتابي بمعان منفصلة لم أفسرها إلا عقلها
فسرتها على ما كان وضعها الحكيم. إني ما ذكرت لكم
مع أن بلينوس قال في آخر كتابه هذا جعلت في
كتابي بعلم علل الأشياء على ما كان مكتوبا في المصحف
الذي كان بين يدي هرمس في السرداب المظلم
ووضعت ذلك لبنيّ ونسلي ولمن كان حكيما من
أبناء الحكماء وعزمت على كل من سقط إليه كتابي
أن يدفعه إلا إلى حكيم مثله أو أديب من أبناء
الحكماء لأن فيه علم علل الأشياء والسر الذي كتمه هرمس
عن الناس ووضعه بين يديه في السرداب وجعل
عليه الطلسم لئلا يقع عليه إلا حكيم على ما ذكرت
فلذلك فاكتموه فلقد هرمس اليوناني المثلث
بالحكمة وسيدنا وهو رأس الحكماء أوصيكم أيها
التلاميذ بما وضعت لكم من الحكمة فاستروها يا
أولادي كما سترها أبوكم ولا تظهروا عليها إلا الحكماء
ولا تظهروا عليه من ليس له بأهل ولا ينال ذلكم
عملكم غيركم من السفهاء والأدنين ما كنتم
تكونون إلا رؤساء أهل زمانكم وهذه الكلمات التي
أصبتها في آخر كتاب بلينوس الحكيم محدثات العجائب
معلقة لم أصب لها معنى فأخرجتها من هذه أنا
أنا بلينوس الحكيم ولما دخلت في السرداب المعروف
عليه

عليه الطلسم نور وجدت الشيخ القاعد على كرسي من ذهب وبيده اللوح
الزبرجد فوجدت اللوح الزبرجد الذي كان بين يدي هرمس مكان
فيه مكتوب بالسريانية الأول حق لا شك فيه صحيح إن الأعلى
من الأسفل والأسفل من الأعلى عمل العجائب من واحد كما كانت الأشياء
كلها من واحد بتدبير واحد كما نشأت الأشياء كلها من ذلك الجوهر بتدبير
واحد ما أعجب عمله هو رأس الدنيا ومنها أبوها الشمس وأمها القمر و
حملته الريح في بطنها وغذته الأرض أبو الطلسمات وخازن العجائب كامل
القوى محيي الأنوار نار صارت أرضا اعزل الأرض من النار تعطي لك
اللطيف أكرم من الغليظ برفق وحكمة يصعد من الأرض
إلى السماء فيقتبس الأنوار من العلو وينزل إلى الأرض وفيه
قوة الأعلى والأسفل لأنه معه نور الأنوار فلذلك تهرب
منه الظلمة وقوة القوى تغلب كل شيء لطيف ويدخل في كل
غليظ على تقدير تكوين العالم الأكبر تكوين العالم الأصغر والعمل
على هذا يجري ولذلك سميت هرمس المثلث بالحكمة
انتهى الكتاب بحمد الله وعونه وصلى الله
على محمد خير خلقه وعلى آله وصحبه وسلم
واتفق الفراغ من هذا الكتاب المعروف برسالة الجامعة
للأشياء في سر الخليقة وصنعة الطبيعة صنعة الحكيم
الفاضل الفيلسوف الكامل بليناس الحكيم صاحب الطلسمات
المعروف بكنز الكنوز يوم الاثنين الثامن من شهر
رجب سنة [illegible] الهجرية

موعـود 5
عُرس العجوز 21
حيرةُ فاهم 33
حكاياتُ الوحيدة 43
صالةُ الوصول 51
مولدُ قصيدة 63
لُعبة ليل 73
مُخَاتَلَةٌ 87
بؤسُ الملكة 99
انتباهٌ لا إرادىّ 111
دورانٌ إجبارى 123
أصلُ السَّنطة 131
سرُّ الكَحُول 141
كهفٌ بحرى 151
ساكنُ السرداب 161